الباب الثانى

سيرة حسان

سيرة حسان

اسمه ونسبه

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدى بن عمرو بن مالك بن النجار الخزرجى ، والخزرج هو ابن حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسْد من بنى كهلان . وأمه الفُرَيعة[١] بنت خالد بن خُنَيْس الخزرجية، من بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، فهو نَجّارى ، خزرجى النسب أباً وأمّا .

كنيته

وكنيته أبو الوليد ، وأبو عبد الرحمن ، وأبو الحسام ، وأبو المضرب[٢] .

مولده

ولد حسان بالمدينة عام ٥٦٣ م[٣] . وقد نقل ابن هشام عن حسان قوله : « والله إنى لغلام يَفَعَة ، ابن سبع سنين أو ثمان أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمه بيثرب : " يا معشر يهود " . حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك . مالك ؟ قال : " طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به " .

فلما سئل سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، عن عمر حسان مقدمَ رسول الله المدينة قال : ستون سنة . وقدمها الرسول وهو ابن ثلاث وخمسين ، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين[٤] .

---

(١) تصغير فرعة وهى القملة الكبيرة .

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة جـ ١ ص ٨ . حسن الصحابة . ابن هشام : السيرة ١/ ١٠ . دائرة المعارف الإسلامية « حسان » . خزانة الأدب للبغدادى ١/ ١٥٧. الاستيعاب ١/ ١٢٨ . أسد الغابة ص ٤ . تاريخ دمشق ٤/ ١٢٥. الشعر والشعراء ص ١٠٤. تهذيب التهذيب ٢/ ٢٤٧ . مفتاح السعادة ١/ ١٩٨ . المؤتلف والمختلف ص ٨٩ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٧٥ .

(٤) ابن هشام : السيرة ١/ ١٦٨ .

فهو إذاً قد ولد قبل الرسول بما يقرب من سبع سنين ، ومولد الرسول كان عام ٥٧١ م .

قومه

وكان قومه سادة اليمن وأهل الرياسة فيها . وهم أبناء عمرو بن عامر ، نزحوا إلى شمالى الجزيرة عند خراب سد مأرب وتفرقوا ، فكان بالمدينة منهم الأوس والخزرج قوم حسان ، وكان بالشام إخوتهم الغسانيون . وبالحيرة بنو عمهم اللخميون[١] ، وفيهم يقول حسان[٢] :

ومن تَكُ عنا معشرَ الأَسْدِ سائلا فنحن بنو الغَوْثِ بن زيدِ بن مالكِ
لزيدِ بن كَهْلانَ الذى نال عزُّهُ قديماً دَرارِىَّ النجومِ الشَّوابكِ

ويفخر بنسبه فيهم ، ويخلط نفسه بآل غسان فيقول[٣] :

إن كنتِ سائلةً ـ والحقُّ مَغْضَبَةٌ ـ فالأَسْدُ نِسبُتنا والماءُ غَسَّانُ
شُمُّ الأُنوف لهم مجد ومكرُمةٌ كانت لهم كجبال الطَّوْدِ أَركان

ولمن يسمع قول حسان هذا أن يظن أن أهل المدينة ليسوا إخوة الغسانيين وحسب ، وإنما هم فرع منهم ينتمون إليهم ، وبذلك يقول نولدكه[٤] .

سيادة الخزرج

وكان لقبيلته السيادة فى المدينة ، وقد اتفقت كلمة الأوس والخزرج بعد أن آل إليهم أمرها قبل الهجرة بأكثر من مائة عام على أن يؤمّروا عليهم مالك ابن العَجْلان الخزرجى ، ولما وقع بينهما الشقاق أجلى الخزرج الأوس عن ديارهم ، واضطر الأوس إلى الاستعانة بقريش وباليهود[٥] .

وكان الخزرج دائماً ممتلئين اعتزازاً بالسيادة وشعوراً بالاستعلاء ، وبأنهم بيت الشرف والسؤدد والمجد والعدد . وقد سرى هذا الشعور إلى حسان ، فتملكت نزعة

---

(١) ارجع إلى ص ٥٤ من هذا الكتاب .
(٢) الديوان رقم ٧٧ .
(٣) ديوان حسان : رقم ٧٨ ، وفى مخطوط مصر ص ٦٨ « والحق مبغضة » و « لهم مجد وتكرمة » .
(٤) أمراء غسان ص ٣ .
(٥) الأغانى ١٥/١٥٦ .

السيادة نفسه ؛ وتجلت واضحة فى شعره ، وهو الذى يقول[١] :

ويثربُ تعلم أنَّا بهـا إذا التَبَس الأَمرُ ميزانُهـا
ويثرب تعلم أنا بهـا إذا قَحَطَ القَطرُ نُوآنُها
ويثرب تعلم أنا بهـا إذا خافت الأَوسَ جيرانُهـا

وبهذه النعرة يخاطب الأوس قائلا[٢] :

قتلتم واحدًا منا بألْف هَلاَ لله ذا الظَّفَرُ المُبينُ
وذلك أن أَلْفَكُمُ قليلٌ لواحدِنا ، أَجَلْ أيضاً ومِينُ[٣]

بنو النجار ذؤابة الخزرج

وكان بنو النجار منهم فى الكثرة والمحل الأرفع ،ولهم فى آل هاشم بن عبد مناف رحم ، وبرسول الله قرابة[٤] ، وفيهم نحدة وبأس ، وسيادة وكرم ، نهضوا لنصرة مالك بن العجلان الخزرجى ، وقد تخلى عنه قومه يوم سُمَير ؛ فعزّ بهم بعد هوان، وكان لهم فى أيام الأوس والخزرج بلاء حسن، وفيهم يقول حسان للأوس:

يُطِيف بكم من النجار قومٌ كأُسْدِ الغاب مَسكنُها العَرينُ[٥]

وبهم يفخر قائلا[٦] :

قومى بنو النجارِ إذ أقبلتْ شَهْباءُ تَرْمِى أهلَها بالقَتَامْ
لا نَخْذُلُ الجارَ ، ولا نُسْلِمُ ال مَوْلى ، ولا نُخْصَمُ يومَ الخِصامْ
منا الذى يُحْمَدُ مَعروفُهُ ويَفْرِجُ اللَّزْبَةَ يوم الزِّحامْ

ويذكر جده النجار أبا ليلى مزهوًّا[٧] :

---

(١) الديوان رقم ١١٦ .
(٢) الديوان : رقم ١١٧. البيتان ١١ و ١٢ .
(٣) ابن هشام: السيرة ١/١١٢ . فسلمى بنت عمرو من بنى عدى بن النجار أم جده عبد المطلب.
(٤) مين . يريد مئين : أى ومئين فوق الألف قليلة أيضاً .
(٥) الديوان رقم ١١٧ .
(٦) الديوان رقم ٢٤ .
(٧) الديوان رقم ١١٠ .

جَدِّى أَبو ليلى ، ووالدُهُ عمرٌو ، وأَخوالى بنو كَعْبِ
وأَنا من القوم الذين إذَا أَزَمَ الشتاءُ مُحالِفَ الجَدْبِ
أَعْطى ذوو الأَموالِ مُعْسِرَهُمْ والضَّارِبينَ بَمْوطنِ الرُّعْبِ

بيت حسان ومكانته

وكان لبيته مكانة وسيادة وشرف ، وقد كان جده المنذر خطيب القوم يوم سُمَيْحة[١] ، وكان الحكم الفيصل الذى التقت عليه الخصوم ، وقضى فقبل الأوس والخزرج قضاءه ، بعد أن ردوا قضاء غيره ، واحتمل فى قومه نصف الدية معونة لإخوته من الأوس[٢] . وأبوه ثابت من سادة قومه وأشرافهم ، وله فيهم ما تقتضيه السيادة من البذل والنصرة ، أسَرته مزينة فعرض عليهم الفداء ، فقالوا : لا نفاديك إلا بتيس — ومزينة تسب بالتّيوس — فأبى وأبوا ، فلما طال مكثه أرسل إلى قومه : أن أعطوهم أخاهم وخذوا أخاكم[٣] . وكذلك كان أخواله بنو ساعدة وذوو قرباه .

شاعرية أسرته

وقد امتزجت فيهم عراقة النسب بالعراقة فى الأدب ، فكانت أسرته أسرة شاعرة .

قال أبو العباس المبرد : « وأعرق قوم كانوا فى الشعر آل حسان ، فإنهم يعتدون ستة فى نسق ، كلهم شاعر ، وهم : سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ابن المنذر بن حرام »[٤] .

وكان خاله مَسْلَمة بن مُخَلَّد بن الصامت الساعدى من خطباء الأنصار المعدودين ، وقد وفد على النعمان بن الحارث الغسانى وقام عنده خطيباً ، وفيه وفى جده المنذر يقول[٥] :

---

(١) سميحة : بئر قرب المدينة كان عندها حرب سمير .
(٢) الأغانى ٣/٤١ . ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٨٤ .
(٣) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ٨٤ .
(٤) الكامل ١/١٧٩ .
(٥) الديوان رقم ٥ .

إنَّ خالى خطيبُ جَابِيَةِ الجَوْ لانِ عندَ النعمانِ حينَ يَقُومُ
وأبى فى سُمَيْحَةَ القائلُ الفا صِلُ يومَ التفَّتْ عليه الخُصُومُ

ويقول فى جده وعمه[١] :

وجَدِّى خطيبُ الناسِ يومَ سُمَيْحةٍ وعمى ابنُ هندٍ مُطعِمُ الطيرِ خالدُ

ويقول فى أخواله من قصيدة أخرى[٢] :

قلت : أَخوالى بنو كعبٍ إذَا أسلم الأَبطالُ عَوْراتِ الدُّبُرْ
رب خالٍ لِىَ لو أَبصرتِه سَبِطَ المِشْيَةِ فى اليوم الخَصِرْ
يوقِد النارَ إذا ما أُطْفئت يُعْمِلُ القدر بأَثْباج الجُزُرْ

ويفرد لذكر فضل أبيه على قومه قصيدة له مطلعها[٣] :

نَشَدْتُ بنى النجارِ أَفعالَ والدى إذَا لم يَجِدْ عَانٍ له من يُوَازِعُــهْ

وقد تأثر بهذه الشاعرية نساء آل حسان ، فهذه أخته خولة تقرض الشعر . ذكر أبو الفرج أن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان ويزيد بن بكر بن دأب أتيا منزل طُوَيْس بالمدينة ، وقد نضحه ونضّعه ، فقال سعيد لطويس: لو أسمعتنا يا أبا عبد النعيم ، فتناول خريطة فاستخرج منها دفًّا ، ثم نقره ، وغنى :

يا خليلِى نابنى سُهْدِى لم تَنَمْ عينِى ولم تَكَدِ

ثم ضرب بالدف الأرض ، فقال سعيد : ما رأيت كاليوم قط شعراً أجود ، ولا غناء أحسن منه ، فقال له طويس: يابن الحسام ، أتدرى من يقوله ؟ قال : لا. قال: قالته عمتك خولة بنت ثابت ، تشبب بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومى[٤].

وكذلك كانت ابنته ليلى شاعرة . حكى الأصمعى أن حسان جلس يوماً ومعه ابنته ليلى فجعل يريد الشعر فقال :

---

(١) الديوان رقم ٧ . وابن هند هذا هو زيد بن خالد الخزرجى .
(٢) الديوان رقم ١٥٥ .
(٣) الديوان رقم ١٢ .
(٤) الأغانى ٣/٣٣ .

مَتَارِيكُ أَذنابِ الأمورِ ، إذا اعْتَرَتْ تركنا الفروعَ ، واجتَثَثْنا أصولَها

ثم جعل يريد الزيادة فلا يقدر ، فقالت له ابنته : يا أبتاه . كأنك قد أَجْبلْتَ ! أفأجيز عنك ؟ قال : نعم . فقالت :

مَقَاوِيلُ بالمعروف ، خُرْسٌ عن الخَنَا كِرامٌ يُعَاطُونَ العشيرةَ سُولَها

فحمى حسان فقال :

وقافيةٍ مثلِ السِّنانِ رَزينةٍ تناولْتُ من جَوِّ السماءِ نزولَها

فقالت :

يَراها الذى لا يَنْطِقُ الشِّعرَ عندَهُ ويَعْجِزُ عن أمثالها أن يقولَها

فقال : لا والله . لا قلت بيت شعر ما دمت حية . قالت : أوَ أؤَمِّنُك ؟ قال : فذاك . قالت : فأنت آمن أن أقول بيت شعر ما حييت[1] .

نشأة حسان

كانت تحيط بهذه البيئة الخاصة بيئة عامة ، تتمثل فى المدينة ؛ وفى الحياة التى تحياها . وقد تقدم لك ما كان يسود المدينة من حضارة وغنى وترف ، وما يصحب ذلك من مجالس اللهو ومراتع اللذة ، وما كان لاتصالها بالعالم الخارجى من أثر فى نهضتها ، وفى الحياة الاجتماعية والعقلية فيها . وما كان يلتهمها من حروب طاحنة بين الأوس والخزرج ، وأثر تلك الحروب فى استثارة الشعر ، وخلق نهضة أدبية ، وتهيئة النفوس لتقبل زعامة جديدة ، وتلقى الرسالة الدينية[2] .

وقد حاولنا أن نتبين فى مصادر التاريخ والمراجع الأدبية ملامح تدل على صورة حسان فى صباه وشبابه ، فأعيانا البحث ولم نظفر بطائل ، وليس هذا غريباً ، فشأن حسان شأن غيره فى ذلك الزمن ، من الذين لم يستثيروا انتباه الزمن فيسجل لهم ويروى عنهم إلا بعد أن أصبح لهم تاريخ ، ولكننا نستطيع — مع ذلك — أن نتمثل لحسان

---

(١) تاريخ دمشق ٤/١٢٥ وما بعدها . المرزبانى : الموشح ص ٦٠ وما بعدها . الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٥٠ .

(٢) انظر فصل « المدينة » .

صورة غير خفية على ضوء ما عرفناه من أمر المدينة ، وما وعى الزمن من أخبار عشيرته ، وأحوال بيئته ، يعين على جلاء هذه الصورة ما يلقيه شعره من ضوء على جوانب حياته .

ولا شك بعد هذا فى أن حسان نشأ فى سعة من العيش ، وذاق طعم النعيم ، وأنه كان لديه من المال فضل يعينه على حياة اللهو والشراب والفراغ التى سنراه يحياها . وهو الذى يقول (١) :

بَلِّغ عُبَيدًا بأنّى قد تركتُ له ... من خير ما يَترُكُ الآباءُ للوَلَد (٢)
الدارُ واسِطَةٌ ، والنخلُ شارِعَةٌ ... والبِيضُ يَرْفُلْنَ فى القَسِّىِّ كالبَرَدِ

ويقول (٣) :

تَرَى فوقَ أثناءِ الزَّرَابِىِّ ساقطاً ... نِعالاً وقَسُّوباً ورَيْطاً مُعَضَّدًا

وكان زهوه بنسبه العريق وحسبه الرفيع يملأ جوانب نفسه ، ويشغل عقله ويسيطر على أفعاله ، وقد كان حريصاً على أن يترك منه فى أكثر شعره أثراً ، وعلى أن يقص على السامع منه خبراً ، وقد تقسم شبابه جانبان : استيفاؤه حق الشباب من الرغائب والشهوات ومن حياة النعيم واللهو ، وقيامه بدوره المحتوم فيما بين قومه وإخوتهم من أيام وحروب ؛ فلها ولعب ، وشرب وطرب ، وأحب وتغزل ، واستمتع بالصيد ، وجر ذيول الغواية والصبا ، وترى لذلك كله أثراً واضحاً فى شعره . كما حمل لواء الشعر فى المناقضات التى دارت حول حروبهم وأيامهم .

حسان والشباب

كان حسان لاهياً محبًّا للشراب ، لايسمع للعاذلين فيه ، وهو الذى يقول (٤) :

ولقد شربتُ الخمرَ فى حانوتها ... صَهْباءَ صافيةً كطَعْمِ الفُلْفُل
يسعى علىَّ بكأسِها مُتَنَطِّفٌ ... فَيُعِلُّنى منها ولو لم أَنْهَل

ثم يقول (٥) :

---

(١) الديوان رقم ١٤٠ .
(٢) عبيداً : يقصد ابنه عبد الرحمن .
(٣) الديوان رقم ١٥٨ .
(٤) الديوان رقم ١٣ .
(٥) الديوان رقم ١٣٨ .

تقول شَعْثاءُ : لو تُفِيقُ من الـ كأسِ لأُلفِيتَ مُثْرِيَ العَدَدِ
أَشْهَى حديثَ النَّدْمانِ فى فَلَقِ الصـ بحِ وصوتَ المُسامِرِ الغَرِدِ

ولكنه كان يتخير الرفاق والندامى ، ويتباعد عن الإفراط والعربدة ، استمع إلى قوله[١] :

وفتًى يُحِبُّ الحمدَ ، يَجعلُ مالَهُ مِن دونِ والدِه ، وإنْ لم يُسْأَل
باكَرْتُ لَذَّتَهُ ، وما ماطَلْتُها بزجاجةٍ من خيرِ كَرْمٍ أَهْدَلِ

وإلى قوله[٢] :

لا أَخْدِشُ الخَدْشَ بالنديم ، ولا يَخْشَى جَليسى إذَا غَضِبْتُ يَدِى
ولا نَديمِى العِضُّ البخيلُ ، ولا يَخَاف جارى ما عشْتُ من وَبَدِ

لم يكن هناك بد من الحب والغزل لشاب كحسان . فى بيئة متحضرة كالمدينة ، فيها خليط من فتيات العرب ومن بنات إسرائيل . فطاف يشم عبير هذه الأزهار النّديَّة . حوّاماً حولها ، وهو يسمى منهن فى شعره : شعثاء[٣] والنَّضِيرة[٤] وليلى[٥] وأم عمرو[٦] وعَمْرَة[٧] وسُعْدى[٨] ولَمِيس[٩] (أم الوليد) وزينب[١٠] .

وقد كان فى حبه وغزله على شىء من السذاجة والعفة وقلة البصر بشئون الغزل

---

(١) الديوان رقم ١٣ .
(٢) الديوان رقم ١٣٨ .
(٣) الديوان أرقام ١ و ٤ و ٢٤ و ٢٨ و ٢٩ و ١٣١ و ١٣٨ .
(٤) رقم ٨ .
(٥) رقم ١٠ .
(٦) رقم ١٨ .
(٧) رقم ٨٦ و ١٥٥ .
(٨) رقم ١٣٩ .
(٩) رقم ١٥٢ و ١٧٥ .
(١٠) رقم ١٥ .

وأحوال النساء ، فهو الذى يقول فى صاحبته شعثاء[١] :

فأنَّى تَلاقِيها إذَا حل أهلُها ... بِوادٍ يمَانٍ من غِفَارٍ وأَسْلَما
سأُهْدِى لها فى كلِّ عامٍ قصيدةً ... وأَقعدُ مَكْفِيًّا بيثربَ مُكْرَمَا

وما هكذا يقول الغزلون ، إنهم يدّعون الوجد المبرّح الذى يقض مضاجعهم ، ويدفعهم إلى السعى نحو من يحبون وإن نأت الديار .

ويقول فى النضيرة[٢] :

يَعْتادُنِى شوقٌ فأَذْكُرُها ... من غير ما نَسَبٍ ولا صِهْرِ
ولقد تُجالِسُنى فيَمْنَعُنى ... ضِيقُ الذراع وعِلَّةُ الخَفَرِ
لو كنتِ لا تَهْوَيْنَ لم تَرِدِى ... أو كان ما تَلْوِينَ[٣] فى وَكْرِ
لأَتَيْتُــه لا بُدَّ طالبَهُ ... فَاقْنَىْ حَياءَكِ واقبلى عُذرى

فأنت تراه يحترس بنفى النسب والصهر عند كلامه عما يعتاده من شوق إلى حبيبته ، وذلك يدل على سذاجته ، إذ يجعله كمن يتوهم أن للنسب والصهر فى بعث الشوق وإذكاء الوجد مثل ما للحب أو هو أكثر . ثم يشير إلى عفته إذ يقول : إنه حين يجالسها يضيق ذرعه ، ويمنعه الخفر أن يجاذبها مايتجاذب المحبون ، ولكنه يقول لها فيما يشبه التعيير لولاحبك إياى ماسعيت إلىّ : «لوكنت لاتهوين لم تردى» ، ولا شىء أبغض إلى المرأة من مجابهتها بأنها طالبة غير مطلوبة ، فإنما توصف المرأة بأنها مطلوبة ممتنعة ، وكأنه بقوله هذا ينسُب بنفسه لا بها ، والعادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتاوت[٤] .

وهذه الأسماء التى ردد ذكرها فى غزله ، أكانت لمحبوبات هام بهن حقًّا ، أم هى أسماء سماها يخفى وراءها صاحبته التى يريد . أم إنه لا وجد به ، ولكنها طريقة الأقدمين فى افتتاح القصيد بالغزل والتشبيب ؟

---

(١) الديوان رقم ٤ .
(٢) الديوان رقم ٨ .
(٣) تلوينه : تمنعين أداءه .
(٤) انظر العمدة ٢/١٠٠ .

ليس لدينا ما يعين على القطع بأن هذه الأسماء كلها كانت لصواحب هام بهن ، إلا أننا نعرف أنه قد تزوج اثنتين منهن هما : شعثاء الأسلمية وعمرة الأوسية ، وهو يذكر فى غزله المتقدم بشعثاء حلول أهلها بأسلم ، مما يؤيد أن شعثاء التى تيممته هى شعثاء التى تزوجها ، وأنه قد علق بهوى بعض من تحدث عنهن . وهذا بالإضافة إلى طبيعة الحياة فى المدينة ، وما كان عليه حسان من فراغ ولهو ونعمة ، يدعو للميل إلى ترجيح صدق غزله ببعض من تغزل بهن .

وقد وجد لذته يوماً فى أن يشهد اللهو ويشرب الخمر ويسمع العزف من بيض نواعم فى الرياط ، فى ندامى كرام يشتوون من سديف ، وأن يشهد — إلى ذلك — صيد حمار الوحش ، وأن يسجل صورة تلك اللذة فى قصيدة له [١] .

حسان فى قومه

ولم تلهه لذاذات الصبا وفتونه عن مشاركة قومه فى حروب الأوس والخزرج .

كان حسان يدرك أنه شاعر قومه ، وعليه عبء الدفاع عنهم ، وإذاعة مفاخرهم ، والتهويل من شأنهم ، والتهوين من أعدائهم ، فنهض بالعبء ، وخاض غمار الشعر حول هذه المعارك . حتى لا تكاد ترى إلى جانبه شاعراً خزرجيًّا آخر ، وأبلى فى هذا الميدان بلاء حسناً ، وهجم وهجا وفخر فى كل موقعة [٢] ، ووقف لشعراء الأوس بالمرصاد ، واشتبك معهم اشتباكاً عنيفاً ، وأصابهم ونال منهم ، ويذكر حسان فى شعره أنه ذاد عن العشيرة بالحسام ، وترك فى الأعداء آثاراً باقية على الأيام ، وأنه رجل حرب وضرب يقود القوم ، وفارس مناجد يحمى الذمار ، وشجاع لدى الهيجاء ، يقود الحى منتطقاً بصارم مثل لون الملح قطاع [٣] .

ولكن المراجع الأدبية والتاريخية التى ذكرت أيام الأوس والخزرج ، لم تثبت لحسان ما أثبتته لشعراء الأوس المعاصرين ، من حمل السلاح وخوض المعارك وقيادة القوم ، كما أن أولئك الشعراء قد حددوا فى شعرهم ما صنعوا فى كل معركة وفصلوه

---

(١) الديوان رقم ١٨ .

(٢) انظر أيام الأوس والخزرج فى فصل المدينة .

(٣) الديوان أرقام — ٢ — ٧ — ١٣٨ — ١٥٢ — ١٧٣ — ٢٢٠ .

تفصيلا ، أما حسان فإنه يقول كلاماً عامًّا وفخراً شاملا ، يحلّى به شعره — على عادته — ولا يذكر لنفسه موقفاً معيناً فى حرب من تلك الحروب ، بل إن شعره فى تلك الأيام قد جاء خالياً من الحديث عن شجاعته وسيفه وبلائه ، إلا قولا مجملا فى قصيدة يناقض بها قيس بن الخطيم عن يوم السرارة ، وهذا القول لا يحمل على الظن بأن سيف حسان كان له فى هذه الحروب مجال ، فهو يقول[١] :

لسانى وسيفى صارمان كلاهُما ... ويَبْلُغُ ما لايَبْلُغُ السيفُ مِذْوَدِى
وإنى ليدعونى النَّدَى فأُجيبُهُ ... وأَضرِب بَيْضَ العارض المُتَوَقِّدِ

فتراه يفخر بسيفه ولسانه ، ويذكر أن لسانه يبلغ من الأعداء ما لا يبلغ سيفه ، فى مواقف جرت عادة القوم أن يؤثروا الفخر فيها بشجاعتهم ، وأن يدعوا سيوفهم تتحدث عنهم ، وتراه بعد إسلامه يباهى الناس بشعره ، ويقرر أن قوافيه الأوابد هى وحدها ميسمه المشهور :

لكل أُناسٍ مِيسَمٌ يعرِفونه ... ومِيسَمُنا فينا القوافى الأَوابدُ[٢]

ذلك بأن حسان كان شاعراً ، يرى شاعريته مصدر فخره ، وموضع اعتزازه ، فتغنى بها فى شعره وأطال[٣] ، كما تغنى بمجد قومه ومآثر آبائه وأطال[٤] .

ويبدو واضحاً بعد هذا أن حسان ربما يكون قد آثر أن ينال من أعدائه ، ويبلغ منهم بسلاحه المفضل البتار وهو اللسان ، كما آثر أن يذكر سيفه أيضاً ، تنويهاً به ، وضنًّا به على الإهمال ، وبعداً بنفسه عن سوء المقال . ولشجاعة حسان ، وما قال الرواة عن جبنه حديث سيأتى عن قريب .

ومهما يكن من أمرٍ فإن حسان قد أدى واجبه لقومه كاملا ، واختار لذلك

---

(١) القصيدة رقم ٢ .

(٢) الديوان رقم ٧ البيت ١٨ .

(٣) الديوان الأرقام — ١ — ٢ — ٧ — ٨ — ١٣ — ٢٣ — ١٢٢ — ١٢٨ — ١٣٨ — ١٤٠ — ١٤٧ — ١٨٧ .

(٤) الديوان الأرقام ١ — ٢ — ٤ — ٦ — ٨ — ٩ — ١٠ — ١١ — ١٣ — ١٥ — ١٧ — ٢٣ — ٢٤ — ١١٠ — ١٢٢ — ١٢٨ — ١٣٨ — ١٤٧ — ١٥٥ — ١٦١ — ١٦٦ — ١٧٥ .

طريقاً رأى أنه أكثر لهم نفعاً، وأبلغ أثراً. وقد كان حسان محبًّا لقومه، معتزًّا بهم، غيوراً عليهم، غضوباً لهم، فنافح عنهم، وهجا أعداءهم من مزينة [١] وجذام [٢]، وبلغ من عصبيته لهم أن طلق زوجه عَمْرة الأوسية — وكانت أثيرة عنده — لأنها فخرت عليه بقومها، وعيرته أخواله، وبقي كل منهما بعد ذلك يساوره الندم، وتعاوده الحسرات [٣]

وكان يعرف ما لقومه فيه من أمل عريض، ترجم عنه بقوله [٤] :

وظَنُّهُمُ بي أَنَّني لعشيرتي — على أيِّ حالٍ كان — حَامٍ وذَائِدُ
فإن لم أُحَقِّقْ ظَنَّهم بَتَيَقُّنٍ فلا سَقَتِ الأَوصالَ مني الرَّواعِدُ

وقد عرف قومه له ولبيته الفضل، فبادلوهم إحساناً بإحسان. سودّهم العشيرة، وحمّهم بنفوسها، وقد هنئ بذلك وفخر به، إذ يقول [٥] :

ولقد تُقَلِّدُنا العشيرةُ أمرَها ونَسودُ يومَ النائباتِ ونَعْتَلِي

ويقول [٦] :

قومي بنو النجارِ، رِفْدُهُمُ حَسَنٌ، وهم لي حاضِرُو النَّصْرِ
الموتُ دونيَ لستُ مُهْتَضَماً وذَوُو المكارم من بني عَمْرِو

وقد أرهفت هذه الأحداث شاعرية حسان، وزاده انتصاره فيها ثقة بنفسه، فبدا له أن يدخل للشعر مضماراً أوسع، فلقي بعض الشعراء، واجتمع بالنابغة، وهو يحدث عن موقف له معه :

قال حسان : قدم النابغة المدينة، فدخل السوق فنزل عن راحلته، ثم جثا على ركبتيه، ثم اعتمد على عصاه، ثم أنشأ يقول :

---

(١) الديوان : أرقام ٦٩ — ٧٠ — ٧١ .
(٢) الديوان : الرقمان ٨٩ — ١٠٩ .
(٣) الأغاني ٣/١٤ .
(٤) الديوان رقم ٧ .
(٥) الديوان رقم ١٣ .
(٦) الديوان رقم ٨ .

عرفتُ منازلاً بعُرَيْتِنات [١] فأَعْلَى الجِزْعِ للحَيِّ المُبِنِّ [٢]

فقلت : هلك الشيخ ، ورأيته قد تبع قافية منكرة ، فما زال ينشد حتى أتى على آخرها ، ثم قال : ألا رجل ينشد ! فتقدم قيس بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشده :

أَتَعرفُ رسماً كاطِّرادِ المَذاهِبِ لِعَمْرَةَ وَحْشاً غير مَوْقِفِ راكبِ

حتى فرغ منها ، فقال النابغة : أنت أشعر الناس يابن أخي ، قال حسان : فدخلنى منه ، وإنى فى ذلك لأجد القوة فى نفسى عليهما ، ثم تقدمت فجلست بين يديه ، فقال : أنشد ، فوالله إنَّك لشاعر قبل أن تتكلم ، قال : وكان يعرفنى قبل ذلك ، فأنشدته ، فقال : أنت أشعر الناس [٣] .

رحلات حسان فى الحجاز

وكان حسان لا يزال فى مطلع شبابه حين تاق إلى الرحلة ، فجال غير بعيد من المدينة ، يزور القبائل ، وينزل بالأشراف ، وكان للأشراف هناك مجالس عامرة بأسباب الحياة واللهو والغناء والشراب ، فخرج إلى صالح بن عِلاط فى بنى سليم [٤] ، فنادمه ، وشهد فى داره مجلس اللهو والشراب ، والخمر عليهم تدور بأيدى الحسان ، والقيان من حولهم يعزفن ويغنين ، وشهد إلى ذلك الصيد والطَّرَد ، ثم انثنى يقص على الناس ما عاقر من اللذات ، وما رأته عيناه هناك فى قصيدة له [٥] .

وسار إلى مكة فطوّف بالبيت العتيق على عادة العرب فى تعظيمه ، فوصف رحلته والطريق إليه ، وكيف خلط خمره هناك بذى رونق من ماء زمزم فاتر [٦] .

وحين أحس من نفسه القدرة على أن يعرض بضاعته بسوق الشعر خرج على

---

(١) عريتنات : واد .
(٢) المبن : المقيم .
(٣) الأغانى ٣/٨ .
(٤) الإصابة ١/٣٢٨ . من أشراف بنى سليم قرب المدينة مات فى الجاهلية .
(٥) الديوان رقم ١٨ .
(٦) الديوان رقم ١٥٦ .

عكاظ مجمع الشعراء[١] ، وكان النابغة تضرب له هناك قبة من أدم ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فدخل عليه وقد أنشده الأعشى شعره ، ثم أنشده حسان وأنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمية قولها :

قَذًى بعينيكَ أَم بالعين عُوَّارُ أَم ذَرَّفَتْ مُذْ خَلَتْ من أَهلِها الدارُ

حتى انتهت إلى قولها :

وإن صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بهِ كأَنه عَلَمٌ فى رأسِه نارُ

فقال النابغة : والله لولا أن أبا بصير أنشدنى قبلك لقلت إنك أشعر الناس ، فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحا وأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَما

فقال : يابن أخى . إنك لا تحسن أن تقول :

فإنكَ كالليل الذى هو مُدْرِكِى وإن خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأَى عنكَ واسعُ

خَطَاطِيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ تُمَدُّ بها أَيْدٍ إليكَ نَوَازِعُ

فخَنَّس حسان لقوله[٢] .

فأنت ترى حسان هنا غضوباً لنفسه ، كما رأيته من قبل غضوباً لقومه ، سريع الغضب ، مندفعاً فى كلا الحالين .

رحلاته خارج الحجاز

نبه ذكر حسان ، واستوى فنه الشعرى ، فامتدت آماله إلى ما وراء الحجاز ، ووجد فى قدومه على الغساسنة والمناذرة وقوداً لما يملؤه من زهو بذلك النسب العريق ،

---

(١) اتخذت عكاظ سوقاً بعد الفيل بخمس عشرة سنة أى حول سنة ٥٨٥ م – بلوغ الأرب ١/٢٧٠ .

(٢) الأغانى ٩/٣٤٠ و ١١/٦ طبع دار الكتب – شعراء النصرانية ج أول قسم ٢ ص ٦٤٠ الموشح للمرزبانى ص ٦٠ .

وتأكيداً جديداً لقرابته لأولئك الملوك ، واستراح لمدحهم ، لأن مدحه ذوى قرابته أشبه بالفخر ، وهو أحب شيء إليه ، ولأنه يرى فيه استمراراً للتغنّى بمجد قومه وإعلان اعتزازه بهم ، واهتز لعطاياهم ، لأنها هى التعبير الملكى عن التقدير المتبادل بينه وبينهم ، وهى الدليل على تكريمهم إياه .

ورد حسان الشام ، والتقى هناك بالأعشى ، فدخلا معاً حانوت خمار ، فاشتريا خمراً وشربا ، فأغفى حسان ثم انتبه ، فسمع الأعشى يقول للخمار : كره الشيخ الغرم ، فتركه حسان حتى نام ، ثم اشترى خمر الخمار كلها ، وسكبها فى الحانوت حتى سالت تحت الأعشى ، فصحا ، وعلم أنه سمع كلامه ، فقام إليه معتذراً ، فقال حسان :

ولَسْنا بشَرْبٍ فوقَهم ظلُّ بُرْدَةٍ ... يُعِدّون للحانوت تَيْساً ومِفْصَدَا[1]
ملوكٌ وأبناءُ الملوكِ ، إذا انْتَشَوْا ... أهانوا الصَّبوحَ والسَّدِيفَ المُسَرْهَدَا

وهكذا لم ينس حسان نفسه حين سار إلى الغساسنة ، فقد كان شعوره بالسيادة غلاباً عليه ، وكان ملوك غسان وأمراؤها يعرفون له نسبه فيهم ، ويحفظون حق قرابته[2] ، ويرقبون قدومه عليهم[3] . ولذلك لم يكن يمدحهم أفراداً على عادة المادحين ، وإنما كان يمدحهم جملة ، ويفخر بهم أسرة ، ولا تراه يصرح باسم ممدوحه منهم ، مما جعل مهمة الباحثين فى تاريخ اتصاله بهم ، وتعيين مراحل هذا الاتصال غير يسيرة .

حسان والغساسنة

تختلف أقوال المراجع الأدبية والتاريخية فى تاريخ اتصال حسان بالغساسنة اختلافاً كبيراً ، فأبو الفرج[4] يذكر أنه وفد على الحارث بن أبى شِمْر ، يعنون به الحارث الأصغر أبا عمرو بن الحارث ، ومعنى هذا أن وفوده عليه كان فى مطلع

---

(١) الأغانى ٤/١٦ (الساسى) .
(٢) انظر الأغانى ١٤/٣ طبعة الساسى .
(٣) انظر الأغانى ١٤/٨ الساسى .
(٤) الأغانى ١١/٣٩ و ٤٠ دار الكتب ، ١٤/٨ الساسى .

شبابه بُعيد العشرين ، لأن الحارث حكم بين سنتى ٥٨٣ — ٥٨٧ . ونولدكه[١] يرجح أن حسان اتصل بالغساسنة حوالى ٦١٠ ، وهو قول غير واضح الرجحان . ذلك لأن حسان — على ما أجمعت عليه المصادر الأدبية — طال تردده على بنى جفنة ، وهو نفسه — ولا شك أنه أصدق مصدر لتاريخه — يقرر أنه بقى أزماناً طوالا فيهم[٢] ،ومعروف أن دولتهم قد دالت سنة ٦١٣ — ٦١٤ م . وهذه السنوات الثلاث لا تسمح بطول التردد ، ولا تسمى أزماناً طوالا ، فضلا عن أنه من الثابت وفوده على عمرو بن الحارث الذى حكم بين ٥٨٧ — ٥٩٧ م .

وفى الأغانى روايات كثيرة عن صلة حسان بالغساسنة ، ومن وفد عليه من ملوكهم وأمرائهم ، لم يوجه أبو الفرج عناية إلى تحقيقها وتمحيصها ، فهو يروى عن حسان قوله[٣] : « أتيت جبلة بن الأيهم الغسانى وقد مدحته ، فأذن لى فجلست بين يديه ، وعن يمينه رجل له ضفيرتان ، وعن يساره رجل لا أعرفه ، فقال : أتعرف هذين ؟ فقلت : أما هذا فأعرفه ، وهو النابغة ، وأما هذا فلا أعرفه ، قال : فهو علقمة بن عَبَدة ، فإن شئت استنشدتهما وسمعت منهما ، ثم إن شئت أن تنشد بعدهما أنشدت ، وإن شئت أن تسكت سكتَّ ، قلت فذاك . قال : فأنشده النابغة :

كِلِينى لِهَمٍّ يا أُميمةُ ناصِبِ وليلٍ أقاسيه بطىءِ الكواكب

قال : فذهب نصفى ، ثم قال لعلقمة أنشد فأنشد :

طَحَا بِكَ قلبٌ فى الحسان طروبُ بُعَيْدَ الشبابِ عصرَ حان مَشِيبُ

فذهب نصفى الآخر ، فقال لى : أنت أعلم الآن . إن شئت أن تنشد بعدهما أنشدت ، وإن شئت أن تسكت سكت ، فتشددت ثم قلت : لا بل أنشد . قال : هات ، فأنشدته :

لله دَرُّ عِصابةٍ نادمتُهُمْ يومًا بِجِلَّقَ فى الزمانِ الأوَّل

---

(١) أمراء غسان ص ٤٥ .
(٢) الديوان رقم ١٣ .
(٣) الأغانى ١٤/٢ .

أَولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أَبيهمُ قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ

فقال لى : اُدْنُه ، اُدْنه ، لعمرى ما أنت بدونهما ، ثم أمر لى بثلثمائة دينار ، وعشرة أقمصة لها جيب واحد ، وقال : هذا لك عندنا فى كل عام » .

ثم يعود أبو الفرج فيقول : إن أبا عمرو الشيبانى ذكر هذه القصة لحسان ووصفها ، وقال : إنها كانت له مع عمرو بن الحارث[١] .

وهذا القول الأخير هو المعروف للباحثين ، ولو أن أبا الفرج نظر فى قصيدة النابغة السابقة لوجده قد صرح فيها باسم ممدوحه ، ولعلم أنها إنما قيلت فى عمرو ابن الحارث لا فى غيره ، وذلك بقوله :

عَلَيَّ لِعمرٍو نعمةٌ بعدَ نعمةٍ لوالدِهِ ليست بذاتِ عَقارِبِ[٢]

ولما وقف هذا الموقف من التردد والتشكيك .

ويجمل بعد ذلك ألا نُغْفل ما تدل عليه هذه الرواية من توافد الشعراء على قصور الغسانيين ، وما كان للنابغة وصاحبه الشاعرين من مكانة معروفة عندهم ، وما كان يحظى به حسان من عطفهم ، وأن حسان كان فى قَدْمته تلك لا يزال جديداً عليهم . وما تدل عليه أيضاً من مدى ما اعترف به حسان للشاعرين من جودة الشعر وبراعة القول ، وما كان من سرور ذلك الممدوح بإحسان حسان .

سار حسان إلى جبلة بن الأيهم أحد أمرائهم ، واتصلت بينهما حبال الود ، حتى قيل إنه انقطع له زمناً ، يقيم عنده سنة وفى أهله سنة أخرى[٣] ، ويصف حسان مجلس جبلة ، فيقول : «لقد رأيت عشر قيان ، خمس روميات يغنين بالبَرابِط[٤] ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان (يعنى جبلة) إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بُطِّن بالثلج ،

---

(١) الأغانى ١٤/٢ و ٣ .
(٢) ليست بذات عقارب . لم يكدرها مكدر .
(٣) الأغانى ١٤/٨ .
(٤) البربط : العود .

وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية، يتفضّل[١] هو وأصحابه بها، وفى الشتاء بفراء الفَنَك[٢] وما أشبهه ، ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع علىّ ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم ، وعلى غيرى من جلسائه ، هذا مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، على حسن وجه وحسن حديث ، وما رأيت خناً قط ولا عربدة ، ونحن يومئذ على الشرك»[٣].

ثم فكر أن يفد على الحارث بن أبى شمر الغسانى (٥٨٣–٥٨٧ م) فخرج إليه فى السنة التى كان يقيم فيها بالمدينة ، وكان حاجبه له ناصحاً ، فعلّمه كيف يحادث الملك ، وكيف يجلس إلى طعامه وشرابه، فلما جاءه أكرمه ، وجعل يسأله عن قومه وعيشهم بالحجاز ، وما بينهم من الحرب ، وعن اليهود ، ثم عاتبه على انقطاعه عنه إلى جبلة، وأقام عنده أياماً ينشده من شعره، ويحضر طعامه ومجلس شرابه ، ويرى الوصفاء يقومون فى خدمتهم، يحملون أوانى الشراب ومعهم المناديل ، والعازفين من الروم بالبرابط يغنونهم ، ثم ارتحل عنه بمال وجائزة[٤] .

ثم وفد على عمرو بن الحارث (٥٨٧ – ٥٩٧) وكان ملكاً له حجاب ، والشعراء يزدحمون ببابه ، فلزم بابه مدة حتى أذن له فدخل عليه ، فرأى النابغة عن يمينه ، وعلقمة بن عبدة عن يساره ، وقد تقدماه فى السن، وتمرسا قبله بالشعر ، وللنابغة إذ ذاك شهرة ذائعة ، فذكر عمرو لحسان قرابته ونسبه فى غسان ، وقال له : يابن الفريعة . ارجع فإنى باعث إليك بصلة سنية ، ولا أحتاج إلى الشعر ، فإنى أخاف عليك هذين السبعين أن يغلباك ويفضحاك ، وفضيحتك فضيحتى ، وأنت والله لا تحسن أن تقول :

رِقَاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحانِ يومَ السَّباسِبِ[٥]

فأبى حسان ، وقال : لابد من القول : فقال عمرو : هات ما عندك يابن الفريعة ، فأنشأ يقول وقلبه وجل :

---

(١) يتفضل بها : يتشح بها متخففاً من الثياب .

(٢) الفنك : حيوان شبيه بالثعلب فراؤه من أجود الفراء .

(٣) الأغانى ١٦/١٤ .

(٤) الأغانى ١٤/٨ . مروج الذهب ٣/٢١٨ و ٢١٩ .

(٥) حجزات : جمع حجزة وهى معقد الإزار وموضع التكة من السراويل . وذلك كناية عن عفة الفرج . السباسب : الشعانين . وهو عيد عند النصارى .

أَسَأَلْتَ رسمَ الدارِ أَم لم تَسْأَلِ بينَ الجَوابِى فالبُضَيْعِ فَحَوْمَلِ[١]

فلم يزل عمرو بن الحارث يزحل عن موضعه سروراً حتى شاطر البيت، وهو يقول : هذا وأبيك الشعر لا ما يعللانى به منذ اليوم ، هذه والله البتارة التى قد بترت المدائح ، هات له يا غلام ألف دينار مرجوحة — وهى التى فى كل دينار منها عشرة دنانير — ثم قال : لك علىّ فى كل سنة مثلها[٢] .

فهذا مثل آخر على مكانة حسان عند الغسانيين ، وعرفانهم حق قرابته، وعلى ما كان للنابغة وعلقمة من شهرة بعيدة ، وعلى أن حسان كان إذ ذاك ما يزال يخطو إلى المجد والشهرة ، ولكنه مثل أدل على اعتزاز حسان بشاعريته ، وثقته بنفسه ، وعلى أنه لم يكن يطلب بشعره المال والكسب ، وإنما كان يرجو من ورائه المجد الذى يصله بقومه ويدنيه منهم ، ويجعله شاعر بلاطهم .

وانظر إلى حسان كيف مضى فى هذه القصيدة ، لقد أفرد لمدح بنى جفنة عشرة أبيات منها ، وخص نفسه بالحديث وبالفخر فى خمسة عشر بيتاً ، ذلك بأنه لا يرى فرقاً بين مدح قومه وبين الفخر بنفسه ، فكلاهما يلتقى عند غاية واحدة، هى الإشادة بمناقب القوم جملة وتفصيلا ، وجماعات وأفراداً .

ثم انظر إليه كيف يتحدث عن سير ركابه كما يتحدث الأمراء ، حين يقول :

وتَزُورُ أَبوابَ الملوكِ رِكابُنا ومتى نُحَكِّمْ فى البَرِيّة نَعْدِلِ

وكأنه يرى فى اتجاد ركابه إلى أبواب الملوك شرفاً يُقَلِّده الزائر والمزور معاً .

وربما يكون حسان قد قال النثر أيضاً ، فالمدائنى يذكر له فى هذا المقام نثراً مسجوعاً ، وأبو الفرج يرى صحة نسبته إليه[٣] .

لم تنقطع صلة حسان بغير هؤلاء من بنى جفنة ، وبخاصة النعمان بن الحارث وابنه حُجْر ، فكان يزورهم ويمدحهم ، ويصف ديارهم ويذكر بلادهم ، كأنما

---

(١) الديوان رقم ١٣ . والجوابى والبضيع وحومل مواضع بالشام .

(٢) الأغانى ١٤/ ٣ . تاريخ دمشق ٤/ ١٣٤. دائرة المعارف الإسلامية مجلد ٧ ص ٣٧٥ .

(٣) الأغانى ١٤/ ٤ ، نهاية الأرب ٣/ ١٧٨ . وفى العقد الفريد ٢/ ١٣٣ جاء هذا السجع لحسان فى الحارث الجفنى مع اختلاف ونقص فى العبارة .

كان موكلا بتحديد معالمها، وتعيين مدنها[١]، ويأسى على ما يصيبهم، ويبكى من يموت منهم، وتلذه الحياة هناك، فتراه بالحَمَّان قرب دمشق، يروى قصة هواه وتصابيه وتطاول ليله، وقد لذعه الحب وأحرقه الجوى، وهو إذ ذاك قد تجاوز رأس الأربعين وجرّب، قائلا[٢]:

تطاول بالخَمَّان ليلِى فلم تَكَدْ ... تَهُمُّ هَوَادِى نَجمِه أن تَصَوَّبا
أخاف فُجاءاتِ الفِراقِ ببَغْتَةٍ ... وصَرْفَ النَّوَى من أن تُشِتَّ وتَشْعَبا
وكدتُ غداةَ البَيْنِ يغلبُنى الهوى ... أُعالجُ نفسى أن أقومَ فأَرْكَبَا
وكيف ولا يَنْسَى التَّصابِىَ بعدما ... تجاوزَ رأسَ الأربعينَ وجَرَّبَا

وهكذا قضى حسان أجمل أيام حياته فى بقعة من أجمل بقاع الأرض، بين جنات الشام وقطوفها الدانية، وعلى ضفاف بَرَدَى، وفى أحضان الجبال المعشبة المتوجة بالثلوج، وبين ديار زهاها الله، وجادها الغيث فالتفَّت عليها الكروم، واهتزت من حولها الأرض وأزهرت وَرَبَتْ، وفاح بها شذا الأقحوان والورد والجادِىّ، ولدى كل بنيان رفيع، ومجلس نَشَاوَى، وكأس مُخْضَلّة لا تجف، عند ملوك ينزل منهم حيث يحب، ويلقى فى رحابهم كل تكريم.

وكان طبيعيًّا أن يترك هذا الجمال أثره فى نفسه، وأن تطبع تلك الحضارة التى عاش فى أكنافها دهراً شعره بطابعها، وأن يستسمح طبعه ويسمو ذوقه، وأن تطلق الخمر لسانه، فيتغنى بما رأى ما شاء الله أن يتغنى، فى شعر هو صورة لما أحاط به من جمال، عذوبة لفظ، ورنين جرس، وروعة موسيقى، ورقة غزل، وإبداعاً فى الخمريات والوصف، فاستمع إليه حين يقول[٣]:

انظر خليلِى ببَطْنِ جِلَّقَ هل ... تُبْصر دونَ البَلْقَاء من أحد؟
جِمالَ شَعْثاءَ قد هَبَطْن من الـ ... مَحْبِسِ بين الكُثْبانِ فالسَّنَدِ
يَحملن حُوًّا حُورَ المدامعِ فى الرِّيـ ... ـطِ وبيضَ الوجود كالبَرَدِ

---

(١) الديوان الأرقام ١٣ و ٢٩ و ١٢٥ و ١٣٩ و ١٥٥.
(٢) الديوان رقم ٢٩.
(٣) الديوان رقم ١٣٨.

من دون بُصْرى ، وخلفَها جبلُ الثلـ ـجِ ، عليه السحابُ كالقِدَدِ

وحين يقول[١] :

أَجِدَّكَ لم تَهْتَجْ لرسم المنازل ودارِ ملوكٍ فوقَ ذاتِ السَّلاسِلِ
تَجُودُ الثُّريّا فوقَها ، وتَضَمَّنَتْ لها بَرَدًا يَذْرِى أُصولَ الأَسافلِ
ديارٌ زَهاها اللهُ ، لم يَعْتَلِجْ بها رِعاءُ الشَّوِىِّ من وراء السوائلِ

وانظر إلى قوله[٢] :

ولقد يَرانى مُوعِدِىًّا كأَنَّنى فى قصر دُومَةَ أَو سماء الهَيْكَلِ
ولقد شربتُ الخمرَ فى حانوتها صهباءَ صافيةً كطَعْم الفُلْفُلِ
يغدو علىَّ بكأْسها متَنَطِّفٌ فيُعِلُّنى منها ولو لم أَنْهَلِ

وقوله[٣] :

كأَن فاها ثَغَبٌ باردٌ فى رَصَفٍ تحتَ ظِلالِ الغَمامْ
شُجَّتْ بصَهْباءَ لها سَوْرَةٌ من بَيْتِ رَأْسٍ عُتِّقَتْ فى الخِتَامْ
نَشربُها صِرْفاً وممزوجةً ثم نُغَنِّى فى بيوت الرُّخَامْ
كأْساً ، إذا ما الشيخُ وَالَى بها خمساً ، تَرَدَّى برداءِ الغُلامْ

كانت دولة الغساسنة كما نرى متحضرة ، متصلة بالعالم المتمدين وبالثقافة اليونانية . وكانت قصورهم مسرح اللهو والغناء والقيان والندمان ، وكان شعر حسان هو الدعامة الفنية التى يقوم عليها هذا الركن من حضارتهم الزاهية ، يطرب له ملوكهم ، وتغنيه قيانهم ، ويتناشده عامتهم ، لذلك توطدت أواصر الود بينه وبينهم ، واحتل على الزمن مكانه فى قلوبهم ، وكان حقًّا عليه أن يحزن لما يصيبهم ، وأن يبكى دولتهم يوم دالت ويندب أيامهم ، وها هوذا يرثى الحارث الحفنى الذى قتل فى

---

(١) الديوان رقم ٨٧ .
(٢) الديوان رقم ١٣ .
(٣) الديوان رقم ٢٤ .

حرب مع المناذرة، ويذم رجاله من غير غسان إذ أسلموه[١] ، ويتفجع على أمير آخر قتله كسرى ، ويستهول الفجيعة فيه[٢] ، ثم يبكى دولة غسان حين قضى عليها الفرس ٦١٣ — ٦١٤ م ، ويندب ذلك الملك الضائع[٣] ، ويذكر غدر الدهر بعمرو بن الحارث وحجر بن النعمان ، وما كان لهما من ملك عريض وجاه عظيم ، ثم لا ينسى حتى فى تلك الساعات الحوالك أن يخلط نفسه بهم ، ويزج بها معهم فى معرض الفخر بفعالهم ، منتهياً من ذلك إلى قوله[٤] :

منهمُ أصلى ، فمنْ يَفْخَرْ به ... يَعْرِف الناسُ لِفخر المُفْتَخِرْ
نحن أهلُ العزِّ والمجدِ معـاً ... غيرُ أنكاسٍ ولا مِيلٍ عُسُرْ

ويذكر مكانه المكين لديهم ، ومجلسه من صاحب التاج قائلاً[٥] :

ذاكَ مَغْنًى من آلِ جَفْنَةَ فى الدهـ ... ـرِ ، وحَقٌّ تَعاقُبُ الأَزمـانِ
قد أَرانى هناك حَقَّ مَكينٍ ... عندَ ذى العَرْشِ مجلسى ومكانى

حسان والمناذرة

وفى خلال ذلك بدا له أن يزور المناذرة ، فقد كان طموحاً معجباً بنفسه ، يريد أن يصل اسمه إلى أطراف العالم العربى المتحضر ، ويتقرب إلى ملوكه ، ويعرض عليهم مواهبه ، فوفد على أبى قابوس النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة (٥٨٠ — ٦٠٢ م) أيام جفوته للنابغة ، وأنشده شعره ، وجالسه إلى الطعام ، ونادمه على الشراب ، ونال منه جائزة سنية ، وأقام هناك زمناً يختلف إليه ، حتى إذا قدم النابغة متلطفاً فى استلال سخيمة النعمان ، وأنشده قصيدته التى يقول فيها :

فإنكَ شمسٌ والملوك كواكبٌ ... إذا طَلَعتْ لم يَبْدُ منهن كَوْكبُ

---

(١) الديوان رقم ٩٢ .
(٢) الديوان رقم ١٦٠ .
(٣) الديوان الرقمان ٨٦ و ١٦٠ .
(٤) الديوان رقم ١٥٥ .
(٥) الديوان رقم ١٢٥ .

فعفا عنه ووهب له مائة من الإبل السود ، فيها رُعاؤها[١] ومطافيلها[٢] وكلابها — ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود إلا النعمان — لم يجد حسان عندئذ خيراً من الرحيل ، فرحل وفى نفسه من النابغة ما أفصح عنه بقوله : « فحسدته على ثلاث ، لا أدرى على أيّهن كنت له أشد حسداً : على إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مائة بعير من عصافيره[٣] أمر له بها[٤] » .

ذكرت المراجع الأدبية التى عرضت لوفود حسان على النعمان أنه أنشده شعره ، ولكنها لم تذكر ذلك الشعر ، وليس فى ديوان حسان ولا فيما نسب إليه من شعر شىء أفرده لمدح النعمان أو المناذرة عامة ، كما كان يفعل مع الغساسنة ، وهذا مما يدعو إلى الظن بأن شعره فيهم قد تناوله الضياع ، لأن المرء لا يكاد يتصور أن يرحل شاعر كحسان هذه الرحلة الطويلة إلى ملك عظيم كالنعمان دون أن يكون قد أعد لهذه الرحلة عدته ، وأجمع على أن يعرض فى تلك السوق النافقة بضاعته ، وفيم كانت رحلته إذاً وهو يطلب الشهرة والمجد ، ويخطب الصلة والود . إن خلت من دلائل شاعريته ، وسِمَات عبقريته ! لكن شعره فيهم يجىء عرضاً فى تضاعيف أغراضه الأخرى . يذكرهم ويصف سيره إليهم ، وحباءهم إياه . ويفخر بقرابتهم ، وبالنسب المتصل بينه وبينهم فيقول[٥] :

أُكَلِّفُهـا أَن تُدْلِجَ الليلَ كلَّهُ تروح إلى باب ابنِ سَلمى[٦] وتَغْتَدِى
وأَلفَيْتُهُ بحرًا كثيرًا فُضُولُهُ جوادًا ، متى يُذْكَرْ له الخيرُ يَزْدَدِ

ويقول[٧] :

---

(١) الرعاء : بالضم والكسر الرعاة .
(٢) المطافيل : جمع مطفل وهى ذات الطفل من الإنس والوحش .
(٣) الأغانى ١١/٢٧-٣٩ طبع دار الكتب. العقد الفريد ٢/٢٢. الجمهرة ص٣٥. شعراء النصرانية ١ قسم ٢ ص ٦٤٩ .
(٤) العصافير : إبل نجائب كانت للملوك .
(٥) الديوان رقم ٢ .
(٦) ابن سلمى : هو النعمان بن المنذر ، وسلمى أمه .
(٧) الديوان رقم ٤ .

وَلَدْنا بنى العَنْقَاءِ وابنى مُحَرِّقٍ فأَكْرِمْ بنا خالاً وأَكرِمْ بنا ابْنَمَا[١]

ثم يقول[٢] :

وأَنا الصَّقْرُ عند بابِ ابنِ سَلْمى يومَ نُعْمانُ فى الكُبُولِ مُقِيمُ[٣]
وأُبَىٌّ ووافِــدٌ أُطْلِقــا لِى ثم رُحْنــا وقُفْلُهُمْ مَحْطُومُ

ويتابع فخره قائلا[٤] :

أَنا الزائرُ الصقرَ ابنَ سَلْمى، وعندَه أُبَىٌّ ونُعْمانٌ وعمرٌو ووَافِدُ
فأَوْرَثَنا مجدًا، ومن يَجْنِ مثلَها بحيثُ اجْتَناها يَنْقَلِبْ وهو حامد

ويقول هرشفيلد[٥] : إن أبَيًّا الأسير المذكور كان أسيراً عند غسان ، ومعنى هذا أن ابن سلمى الذى قصده حسان أمير غسانى وليس النعمان بن المنذر على ما هو معروف . ويقول السُّهَيلى[٦] : إن ابن سلمى هذا أحد أمراء الغساسنة. أما نولدكه فيقول[٧] : إنه لم يجد شيئاً عن « ابن سلمى » المذكور سوى ما تقدم . على أنه يراه ليس إلا افتراضاً ضعيفاً لا يستند على دليل ثابت محقق . وقول نولدكه هذا قول سديد .

وسواء أكان ابن سلمى صاحب هؤلاء الأسرى هو النعمان بن المنذر اللخمى ، أم كان أميراً آخر . وإذا كان شعر حسان قد خلا من التصريح باسم النعمان ، فالذى لا شك فيه هو أن حسان قد زار النعمان على ما ذكرت المراجع الأدبية ، وأنه كان صاحب جاه مقبول الشفاعة ، وأنه كان محبًّا لقومه ساعياً لخيرهم ، فسارع

---

(١) محرق : هو عمرو بن هند (٥٦٣ – ٥٧٨ م) – وهند أمه – ابن المنذر بن ماء السماء اللخمى وسمى محرقاً لأنه أحرق من بنى دارم مائة رجل لأن رجلا منهم قتل أخاه (أيام العرب فى الجاهلية ص ١٠٠) والعنقاء : هو ثعلبة بن عمرو بن عامر أخو جفنة جد ملوك غسان .

(٢) الديوان رقم ٥ .

(٣) الكبول : القيود .

(٤) الديوان رقم ٧ .

(٥) الديوان ص ١١٤ شرح القطعة رقم ٢٢٠ .

(٦) شرح السيرة عند الكلام على قصيدة حسان . « منع النوم بالعشاء الهموم » ص ٦٢٥ .

(٧) أمراء غسان ص ٤٧ .

إلى هؤلاء الأسرى منهم ، يفك أغلالهم ويطلق سراحهم ، وكان قومه يعرفون له ذلك فيتجهون إليه فى الشدة . وهذا هو حسان يحدثنا عن أبى أحد أولئك الأسرى حديثاً يفصح عما خامره — وهو أسير — من الأمل القوى فى نهوض حسان إليه ونجدته له ، إذ يقول[١] :

يَخاف أبَىٌّ جَنَانَ العَدُوّ ... ويَعلم أنى أنا المَعْقِلُ[٢]
فلا وأَخيكَ الكريمِ الذى ... به لا تُرَى أبدًا تُعْتَلُ[٣]
فلا تَقْنَعُ العامَ فى دارهمْ ... ولا أُسْتهَدٌّ ولا أَنْكَــلُ[٤]
أَبَى لكَ لا مُسْتَجَافُ الفؤا ... دِ يومَ الهِيَاجِ ولا أَعْزَلُ[٥]

وإذا كانت هذه الزيارة العابرة للمناذرة قد أثارت فى نفوس ملوك غسان شيئاً من الامتعاض والغيرة[٦] فإن انقطاع حسان إليهم بعدها كان كفيلا بإرضائهم ، واستصلاح قلوبهم ، وظل شاعر بلاطهم حتى دالت دولتهم ، فعاد إلى ما كان عليه بالمدينة ، مشغولا بما لا يزال بين قومه من الإحن والفتن ، سادراً فى اللذات ، وفى خياله صورة باهرة لا تغيب لحياة اللهو والحضارة والنعيم ، التى استمتع بها حيناً من الدهر فى بلاط الغساسنة ، وكان يرسل بين الحين والحين زفرة حرّى من اللوعة على ما فات ، ويسترجع أطياف أحلامه الذهبية ، متمثلة فى قطعة من شعره الجميل الرائع .

ظهور الإسلام

وكان قد عرف إذ ذاك فى يثرب أمر النبوة كما عرف فى غيرها من القبائل ، حين صدر الناس عن الموسم ، فروّوا ما شهدوا وما سمعوا عن محمد وشأنه مع قومه .

---

(١) الديوان رقم ٢٢٠ .
(٢) الجنان : القلب وما يضمره .
(٣) تعتل : تؤخذ أخذاً عنيفاً .
(٤) تقنع : تذل . أستهد : أضعف . نكل . نكص وجبن .
(٥) مستجاف الفؤاد : مذعور مفزع . الأعزل : من لا سلاح معه .
(٦) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٧٥ .

وربما كان الأوس والخزرج أعرف بأمره من غيرهم حين سمعوا به ، لكثرة ما حدثهم عنه أحبار اليهود هناك ، وكان طبيعيًّا أن يكون الخزرج وبنو النجار منهم خاصة أكثر اهتماماً بظهور الرسول ، وأشد تتبعاً له من الأوس ، لأنهم أخوال جده عبد المطلب ، كما كان مما يتوقع أن نرى لحسان الخزرجي النجارى وهو أمير شعراء قومه موقفاً فى نضال محمد صلى الله عليه وسلم مع قريش ، وأن نراه يدافع عنه بعض الدفاع متأثراً بشيء مما سلف ، ولكنه تخلف ولم نجد له ذكراً ، على حين بكَّر أبو قيس بن الأسلت الأوسى الشاعر تبكيراً بإثبات وجوده فى هذا الحدث — مع ما كان عليه من عناد ، وما عرف من بعده من الإسلام — فقد كان لقريش صهراً ، يقيم عندهم السنين بامرأته ، فلما تحدث الناس بما بين قريش من الاختلاف فى الرسول قال أبو قيس قصيدة يعظم فيها الحرمة ، وينهى قريشاً عن الحرب ، ويذكرهم فضلهم وأحلامهم ، ويدعوهم إلى الكف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويذكر بلاء الله عندهم ، ودفعه الفيل وكيده عنهم[١] . وكان متألهاً تشغله أمور الديانات والنبوات . ومن قبل ذلك تحدث فى شعره بما صنع الله بالحبشة ، وما رد عن قريش وعن بيته من كيدهم ، وما لله فى الكون من آيات ، وكان ينظر فى ملكوت السموات والأرض نظر تأمل واعتبار[٢] .

عرض الرسول نفسه على القبائل بالمواسم فى العاشرة من بعثته ، قبل الهجرة بسنوات ثلاث[٣] . فلقى أناساً من يثرب وحدثهم وأسمعهم القرآن ودعاهم إلى الله ، فلم يبعدوا عنه ، ثم انصرفوا وقد استشعر بعضهم الإسلام[٤] .

وفى السنة الحادية عشرة من البعثة لقى الرسول عند العقبة ستة نفر من الخزرج ، فصدقوه وآمنوا به . فلما رجعوا إلى قومهم ذكروا لهم الرسول ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر من رسول الله[٥] . وفى الموسم الذى تلاه لقيه اثنا عشر يثربيًّا ، منهم عشرة من الخزرج ، فبايعوه

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٣٠٢ .
(٢) ابن هشام : السيرة ١/٦٠ ، وارجع إلى ديوان الشاعر .
(٣) ابن هشام : ٢/٥٧ .
(٤) ابن هشام : ٢/٦٨ — ٧٠ .
(٥) ابن هشام : ٢/٧٠ و ٧٢ .

بيعة العقبة الأولى ، وبعدها لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات ، إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد ، وخَطْمة ، ووائل ، وواقف من الأوس ، وهم أوس الله[١]

فلما كانت العقبة الثانية فى الثالثة عشرة من البعثة لقى الرسولَ هناك ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان فبايعوه . أما المرأتان فخزرجيتان[٢] . وأما الرجال فاثنان وستون منهم خزرجيون ، وكان الأوس أحد عشر رجلا . وشهد العقبة من كبار شعرائهم كعب ابن مالك ، وعبد الله بن رواحة الخزرجيان ، وكان عبد الله أحد النقباء عليهم[٣] ، وشهدها من آل حسان أخوه أوس بن ثابت ، وزيد بن سهل بن الأسود بن حرام من بنى عمومته[٤] .

ونجيل الطرف بحثاً عن حسان بين الوافدين على الرسول ، وفى مواكب المسلمين ، أو محافل القائلين ، فلا نرى له أثراً ، والشاعر لسان قبيلته الناطق ، وميزانها الحساس ، وهذا الحدث التاريخى الخالد — ولقبيلته فيه الباع الطويل والسبق السابق — كان من شأنه أن يبعث الشاعر على الاهتمام به ، وأن يستثير موهبته إلى إبداء رأيه فيه ، مناصراً أو مناهضاً أو مصوراً .

وأخذت المعركة تقترب من دياره ، وأبواقها تدوّى ، وطبولها تدق ، وهو عنها منصرف لاه ، فإلام كان انصرافه ، وفيم كان لهوه ؟

كان حسان مشغولا كما ذكرنا بالإحن القائمة بين الأوس والخزرج ، وكان مشغولا بحياة اللهو واللذات التى يعاقرها ، وكان فى غفوة جميلة حالمة ، يستعرض فيها ماضيه الحافل بالشام ، وفى قصور آل غسان ، وقد لقنه ذلك الماضى الطويل أن الحياة فخر وزهو ، واستمتاع ولذة ، وأشرب فى قلبه حب تلك الحياة وإلفها ، حتى رأى أنها هى الحياة الحق ، وأن تكديرها بالتفكير فى المجهول ، وتلمس أسباب العناء بالاشتراك فى صراع لا يعنيه ولا يضير قومه ، حول دين جديد وآخر قديم

---

(١) ابن هشام : ٢/٨٠ .

(٢) ابن هشام : ٢/٨٤ .

(٣) ابن هشام : ٢/٨٥ .

(٤) ابن هشام : ٢/١٠٠ .

يصطرعان — لون من الحمق والسفه يقع فيه أولئك الذين لا يفقهون ، فأدار لأولئك وهؤلاء ظهره ، وخلا إلى نفسه و إلى تلك الحياة . وما نزال نجد إلى اليوم بين أظهرنا أنماطاً من الناس على مثال حسان ، يعيشون لأنفسهم وللهوهم ، وقد لا يغرقون فى اللذات والمآثم الإغراق كله ، ولكن أثقل شىء على نفوسهم وأبغضه إلى قلوبهم أن تصرفهم عما ألفوا من الفراغ والنشوة إلى التفكير فيما لا يعنيهم من الأمور الروحية والمسائل الدينية .

لم توقظ طبول الإسلام حسان من غفوته ، لكن نبأة خفية من جانب قومه نبهته وأرقته ؛ ذلك أن قريشاً حين علمت خبر العقبة الثانية ، وأولئك القوم الذين بايعوا الرسول عندها ، أسرعت فجدت فى آثارهم ، ففاتوها ، وأدركت منهم سعد بن عُبادة ، والمنذر بن عمرو بن خُنَيس من أخوال حسان[1] ، فأسرت سعداً ، وأعجزها المنذر هرباً ، فقال فيهما ضرار بن الخطاب القرشى :

تَدَارَكْتَ سعدًا عَنْوَةً فأَخذتَهُ وكان شِفاءً لو تَدَارَكْتَ مُنْذِرا
ولو نِلتَهُ طُلَّتْ هناكَ دماؤُه وكان حَرِيًّا أن يُهانَ ويُهْدَرا

فما سرى هذا القول إلى حسان حتى انتبه ثم انتفض ، كأنما أصابته طعنة نافذة ، وانقض على ضرار ، لا مشيداً بالإسلام ولا ذاكراً له ، ولا مدافعاً عن عشيرته الذين أسلموا ، ولكن ثائراً لقومه ، مشيداً بصاحبيه ، مهدداً متوعداً متهكماً ، معتزًّا بمكانه من الشعر ، متطولا بالعفو عن ضرار لأبى وَهب المخزومى خال عبد الله ابن عبد المطلب فى قوله :

لستَ إلى سعدٍ ولا المرءِ مُنْذِرٍ إذا ما مَطايا القومِ أَصْبَحْنَ ضُمَّرَا[2]

إسلام حسان

ولعل حسان قد وجد نفسه بعد هذا مسوقاً إلى التفكير فى الدين الجديد ، وفيما رأى من تأييد قومه له واندفاعهم إليه ، حتى كانت الهجرة بعد العقبة الثانية

---

(١) هو ابن عم أمه الفريعة بنت خالد بن خنيس .

(٢) ابن هشام ٢/٩٣ و ٩٤ — الديوان رقم ١٠٥ . وهم يذكرون أن هذا أول شعر لحسان فى الإسلام أو الهجرة . وهو بعيد — كما تبين — عن أن يكون فى شأنهما . وإنما هو شعر عصبية لقومه وذوى قرباه .

بأشهر ، وأخذت أضواء الفجر الصادق تشيع من حوله ، وطلائع الصباح الوضىء تغمر البطاح والوديان ، وتعم الوهاد والربا . ودخل الرسول المدينة فلقيه الأنصار بالتهليل والتكبير ، واستبقوا إلى استقباله والترحيب بمقدمه ، ونزل داراً من دور بنى النجار[١] ، وتسابق القوم إلى الدخول فى دين الله أفواجاً ، وقبل أن يمضى عام على الهجرة كان الإسلام قد عم الأنصار كلهم إلا أوس الله فإنهم أقاموا على شركهم[٢] . وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، وآخى بين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخى حسان ، ولا شك فى أن حسان عندئذ قد اهتز لما أصاب قومه من كرامة بنزول الرسول فى دورهم ، ونزول عثمان على أخيه أوس ، فدخل فيما دخل فيه قومه من الإسلام ، كما أسلمت أمه وبايعت[٣] .

وإننا لنتمثله وقد أتى الرسول فى صحابته فعرفه بسيماه ، وقد كساه الله الجلال الباهر ، وزانه بالتواضع الظاهر ، وأيده بالبيان المعجز والمنطق الغلاب ، وجمله بالخلق العظيم ، يجرى الأمور فى يسر ، ويصرفها فى رفق ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وأصحابه من حوله فى حسن سمت ، يتسابقون إلى طاعته ، وينزلون عند إشارته ، ويقفون منه عند حد الأدب الجميل ، وهو بينهم كأحدهم ، يجعل أمرهم شورى بينهم ، ويرفعهم إلى مساواة لا عهد لهم بها ، ويلقنهم نظاماً ليس فى طبعهم ، عزيز عليه عنتهم ، حريص عليهم ، بالمؤمنين رءوف رحيم .

رأى حسان فى الرسول زعيما ، وقائداً ، وهادياً ، ومرشداً ، ومصلحاً عظيما ، وسيداً فى صحبه وأخاً لهم كريماً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، لا تطغى رياسته فى قومه على حقهم فى حرية الرأى والحياة الكريمة ، ولا يستمد عظمته من هوان عشيرته ، لا مأرب له فى دعوته ؛ فليس يبتغى ملكاً ولا يطلب رياسة ولا شرفاً ، ولا يطمع فى عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وإنما يجاهد ويجاهدون ابتغاء وجه الله ، وفى سبيل دعوة هدفها الخير والحق والنعيم المقيم للناس كافة .

فكر حسان وقدر ، ورأى أن المجد الذى توارثه قومه كابراً عن كابر ، وذلك

---

(١) ابن هشام ٢/١٤٠ .
(٢) ابن هشام ٢/١٤٦ .
(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة ٢/٨ . أمراء غسان ص ٤٥ .

النسب العريق والحسب الرفيع الذى طالما تغنى به فجاوبه الزمان ، سيظل بمأمن من التنقص والإهدار والعدوان ، لأن الدعوة الجديدة دعوة سمحة كريمة لا تعرف الحقد ، ولكنها تدين بالمحبة والرحمة ، ولا تقوم على دعائم من التدمير والبطش والقهر والإذلال ، ولكنها تنهض على أساس من البناء والتعمير والصلاح والإصلاح ، وتدعو إلى التعاون على البر والتقوى ، وتهدى إلى التى هى أحسن .

ثم نظر ، فرأى قومه الذين بهم عزته ، وعشيرته التى بها زهوه وفيها فخره ، قد تتابعوا فى الإسلام ، والمدينة كلها ليس فيها بيت من بيوت الشرف إلا دخل فيما دخل فيه الناس ، وأولئك إخوته وعمومته وخئولته تسير فى ركاب الرسول سباقة مزهوة ، فما ينبغى له أن يتخلف عن هذا الركب الميمون ، وينْبَتَّ عنه فرداً وحيداً منبوذاً ، وليدرك لنفسه طرفاً من هذا المجد الطارف ، يضمه إلى ذلك المجد التالد .

ورجع البصر إلى الرسول كرة أخرى ، فرآه أعظم هيبة ، وأرفع شأناً ، وأجل قدراً ، وأبين جلالا ، فلم يملك نفسه أن اندفع إليه مبايعاً ، وأسلم نفسه لله مع المسلمين ، وقام بين يدى الرسول يعلن إيمانه بالله ورسوله ، وبمن سبقه من الأنبياء والمرسلين ، وذمّه للمشركين وما كانوا يعبدون :

شَهدتُ بإذن اللهِ أن محمدًا ... رسولُ الذى فوقَ السموات من علُ
وأن أبا يحيى ويحيى كليهما ... له عملٌ فى دينه مُتقبَّـلُ[1]
وأن التى بالسِّدِّ من بَطْنِ نَخْلَةٍ ... ومَن دَانَها فَلٌّ من الخير مَعزِلُ[2]
وأن الذى عادى اليهودُ ابنَ مريم ... رسولٌ أَتَى من عند ذى العرش مرسَلُ
وأن أخا الأحقافِ إذ يعذُلُونهُ ... يجاهد فى ذاتِ الإلهِ ويَعْدِلُ

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وأنا أشهد معك[3] .

وعرف الرسول المؤيد من ربه أن حسان رجل يحب الفخر ، فقسم له نصيباً

---

(١) أبو يحيى : النبى زكريا .

(٢) التى بالسد من بطن نخله : هى العزى ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش. بلوغ الأرب ٢/٢٠٣ . فل : منهزم . معزل : خال منقطع . دانها : خدمها .

(٣) الأغانى ٤/١٠ .

منه ، وكتب له سهماً فيه ، فأحسن قبوله وقرب مجلسه ، ورفع مكانه ، واطمأنت نفس حسان بهذه الكرامة الجديدة ، وطوى جوانحه على الرضا والغبطة بما أصاب لدى الرسول من إعزاز ، فصدح بالشعر ، معلناً سرور الأنصار بمقدمه ، وخيبة قريش بارتحاله عنهم :

لقد خاب قومٌ غاب عنهم نبيُّهُمْ وقدسُرَّ من يَسْرِى إليهم ويَغْتَدِى[١]

وقام يمدح هشام بن عمرو من بنى عامر بن لؤى ، لقيامه فى نقض صحيفة قريش ، التى تعاهدوا فيها على محاصرة بنى هاشم وبنى المطلب فى شعبهم ومقاطعتهم ، قائلا[٢] :

هل يُوفِيَنَّ بنو أُميةَ ذِمَّةً عَقْدًا كما أَوْفى جِوارُ هِشام

ويبكى المطعِم بن عدىّ حين مات ، أو يذكر سعيه فى نقض الصحيفة وإجارته الرسول حتى طاف بالبيت[٣] :

أيا عينُ فابْكى سيّدَ القومِ واسْفَحِى بدمعٍ ، وإنْ أَنْزَفْتِهِ فا سكُبِى الدَّما
وبَكِّى عظيمَ المَشْعَرَيْنِ كليهما على الناس معروفاً له ما تَكلَّما
أَجَرْتَ رسولَ الله منهم فأصبحوا عَبيدَكَ ما لَبَّى مُهِلٌّ وأَحْرَما

ثم يذكر ما لقى الرسول من قومه بمكة ثلاثة عشر عاماً حتى هاجر ، وما أصاب بالمدينة من أمن وتفدية بالأموال والأرواح ، ويعلن أن الله لا رب غيره ، وأن كتاب الله أصبح هادياً ، فيقول[٤] :

وَثَوَى بمكةَ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً يُذَكِّرُ لو يَلْقَى خليلاً مُوَاتِيَا
ويَعْرِضُ فى أَهلِ المَوَاسِمِ نَفْسَهُ فلم يَرَ مَنْ يُؤْوِى ولم يَرَ داعيَا

أدركت قريش أن حسان قد صار للدعوة لساناً ذربا ، ومحامياً مدرهاً ، وهى

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢/١٣٢ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٢/٢١ .
(٣) ابن هشام : السيرة ٢/١٩ والديوان رقم ٨٨ .
(٤) الديوان رقم ١٩ .

تعرف قدرته وشاعريته ، فخشيت عواقب أمره ، وانبرى له أمية بن خلَفٍ الجُمَحيّ[١] يهجوه بقوله :

أَلا من مُبْلِغٌ حسانَ عنى ... مُغَلْغَلَةً تَدِبُّ إلى عُكَاظِ[٢]
أَلَيْسَ أَبوكَ فينا كان قَيْنًا ... لدى القَيْناتِ فَسْلاً فى الحِفَاظِ[٣]

فيجيبه حسان مهدداً متوعداً[٤] :

أَتانى عن أميّةَ زُورُ قَولٍ ... وما هو بالمَغِيبِ بذى حِفَاظِ[٥]
سأَنشُرُ إن بَقِيتُ لكم كلاماً ... يُنَشَّرُ فى المَجامعِ من عُكَاظِ

حسان مجاهد ومؤرخ

عزت دعوة الإسلام بالهجرة وتأييد الأنصار لها ، وغاظ قريشاً أن الرجل يرحل عن قومه فيجد هواناً فى ديار غربته ، وأن محمداً يرحل عنهم فيجد فى غربته العز والمنَعة . وأن الإسلام الذى كادوا له وحاولوا وأده وليداً قد نما وترعرع وأزهر ، وأن النور الذى أرادوا أن يطفئوه بأفواههم قد أبى الله إلا أن يتمه ، فحاولوا أن يشفوا غيظ صدورهم بالسب والشتم والهجاء ، فعل العاجز المتلدد ، فكان يهجو رسول الله منهم ثلاثة رهط : عبد الله بن الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص ، فقال قائل لعلى بن أبى طالب : اهج عنا القوم الذين قد هجونا ، فقال على : إن أذن لى رسول الله فعلت . فقيل للرسول : ألا تأذن لعلى كى يهجو عنا هؤلاء القوم ؟ قال : ليس عنده ذلك . ثم قال للأنصار : ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت :

---

(١) فى تاريخ النقائض فى الشعر العربى ص ٢٨ (أمية بن خلف الخزاعى) ولم نجد فى خزاعة أحداً معروفاً بهذا الاسم .

(٢) مغلغلة : رسالة تحمل من بلد إلى بلد .

(٣) القين : الحداد . الفسل : الضعيف الرذل .

(٤) الديوان رقم ٥٢ .

(٥) فى مخطوط دار الكتب ص ٦٠ « ذَرْوُقول » والمعنى طرف منه .

أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه وقال : والله ما يسرنى به مقول بين بُصرى وصنعاء ، ولو شئت لفريت به المزاد . فقال : كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال : إنى أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين . قال فاذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اهجهم وجبريل معك . فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ؛ فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم المثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم الكفر ، فكان أشد القول عليهم فى ذلك الزمان قول حسان وكعب ، وأهونه عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلمت قريش كان أشده عليهم قول ابن رواحة . ولما أنشدت قريش شعر حسان قالت : إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبى قحافة ، وقال من لم يعلم منهم أنه شعر حسان : لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا[1] .

فالرسول يدعو الأنصار إلى أن ينصروه بألسنتهم كما نصروه بسلاحهم ، وحسان يتقدم الصفوف ملبياً دعوته ، معتزًّا بسلاح الكمىّ المُعلَّم ، واثقاً من مقدرته على تخليص الرسول من قومه المهجوين كما تسل الشعرة من العجين ، والرسول يعين حسان على استكمال عدته الهجائية بإرشاده إلى أبى بكر ، ليأخذ عنه حديث الأنساب ، ثم يؤيده بالدعاء له . وقد أفلح حسان فى إيجاع خصوم الإسلام وإصابة مقاتلهم حتى عرفوا فيه ريح أبى بكر .

ولم يلبث حسان بهذه الحمية المتقدة والحماسة المشتعلة أن كسب حب الرسول وثقته ، بعد أن حظى بعطفه ، فأقامه وزير دعايته ، وجعله محامى دعوته ، وشاعر خاصته ، ينافح عنه ، ويكيد لأعدائه وأعداء الله . وانقطع حسان لمهمته الجديدة وفرغ للرسول ، ووقف نفسه ولسانه على الله ودينه والجهاد فى سبيله .

دخلت الدعوة دوراً جديداً ، فبدأت الغزوات ، ودارت رحى الحرب بين المسلمين والمشركين ، فهم لا يتصافحون إلا بالسيوف والأسنة ، وخرجت قريش فى السنة الثانية من الهجرة إلى بدر الكبرى بخيلها ورجلها وسادتها وأشرافها ، تحادّ

---

(١) انظر الأغانى ٤/٤ و ٥ الساسى ، والاستيعاب ١/١٢٨ ، أسد الغابة ص ٥ . دلائل النبوة ٦ مخطوط ليس للصفحات أرقام .

الله وتحارب رسوله ، فانتصر المسلمون ، وغلبت الفئة القليلة تلك الفئة الباغية الكثيرة ، وقتل من سادة قريش عدد كبير ، ونَشهَدُ حسان وقد ولى عمله يقوم فى إثر المعركة يقص قصصها ، ويسمى كبار قتلى قريش فيها ، ويروى كيف قذفوا بهم كَبْكَبَا كِبِ[١] فى القَلِيب ، وينظم قول النبى المأثور حين وقف على هؤلاء القتلى يناديهم فى قوله[٢] :

يُناديهم رسولُ الله لمّا قَذَفْناهُمْ كباكِبَ فى القَلِيبِ
أَلَمْ تَجِدوا كلامى كان حقًّا وقولُ اللهِ يأْخذُ بالقُلوب
فما نَطَقوا ، ولو نطقوا لقالوا صدقتَ وكنتَ ذا رأىٍ مُصِيبِ

ويذكر بدرا ، ويعير الحارث بن هشام فراره عندها فى قصيدته المشهورة[٣] :

تَبَلتْ فؤادَكَ فى المنام خَرِيدةٌ تَسْقِى الضَّجيعَ ببارِدٍ بَسَّامِ

وقد أوجع هجاؤه الحارث حين تناقله الناس ، وتندرت به عامتهم ، فاعتذر عن هذا الفرار بأبيات له أحسن اعتذار[٤] .

ويجيب ابن الزبعرى على ما قال فى بدر بقصيدة مطلعها[٥] :

ابْكِ بَكَتْ عيناكَ ثُمَّ تَبَادَرَتْ بِدَمٍ تُعَلُّ غُرُوبُها سَجَّامِ

وكان أبو سفيان بن حرب قد أسر سعد بن النعمان الأوسى حين خرج معتمراً بمكة حتى يطلق المسلمون ابنه عمراً أسير بدر ، وقال فى ذلك شعراً ، فنهض حسان يجيبه[٦] :

لو كان سعدٌ يومَ مكةَ مُطْلَقاً لأَكثَرَ فيكم قبلَ أن يُؤْسَرَ القَتْلا

ويهجو صَيفىّ بن أبى رفاعة من بنى عابد بن مخزوم ، وكان أسيراً فى بدر ،

---

(١) كباكب : جماعات .
(٢) الديوان رقم ١٥ ، ابن هشام : السيرة ٢/٢٩٣ .
(٣) الديوان رقم ٤٣ ابن هشام : السيرة ٣/١٧ .
(٤) ابن هشام : السيرة ٣/١٩ والأغانى ٤/١٧ .
(٥) الديوان ٥٧ ، ابن هشام : السيرة ٣/١٦ .
(٦) ابن هشام : السيرة ٢/٣٠٦ .

فخلاه الرسول حين أبطأ قومه فى فدائه على أن يبعث بذلك الفداء ، فلم يف ، وذلك بقوله[١] :

وما كان صَيْفِيٌّ لِيُوفِيَ ذِمَّــةً قَفَا ثعلبٍ أَعْيَا ببعضِ المَوَارِدِ

ويمضى حسان متعقباً القرشيين ، موزعاً هجاءه فى أحيائهم ، ذاكراً لكل قوم مثالبهم ، معيراً إياهم ما أصابهم فى بدر ، مسجلا عليهم فرارهم وضعفهم وهزيمتهم ؛ فيذكر فرار حَكيم بن حِزَام الأسَدِىّ[٢] والحارث بن هشام المخزومى[٣] ويهجو أبا جهل[٤] وبنى أسد[٥] وبنى جمح[٦] وبنى مخزوم[٧] ، ويفخر بقومه ونصرهم الله ، ويمدح الرسول والمجاهدين معه[٨] . ثم يلتفت إلى اليهود فيهجو كَعبَ بن الأشرف الذى خرج إلى مكة يبكى أصحاب القَلِيب ببدر ، وينشد الأشعار ، ويحرض على رسول الله[٩] .

ولم يكن حسان يظهر بشعره هذا فى المقدمة ، عند إعداد المعارك أو السير إليها ، فيجتمع بالقوم يدعوهم للجهاد ويرغبهم فى الاستشهاد ، ويثير حميتهم على الأعداء ، لم يكن يُحَمِّس لها ويدفع إليها قبل وقوعها ، ولكنك كنت تراه فى أعقاب المواقع ، يصورها ويحصى آثارها ، ويفخر بالنصر وبالرسول وبقومه ويعير الأعداء بعد أن تنقضى ، فكان موقفه أشبه بأن يكون سلبيًّا تصويريًّا ، لا إيجابيًّا إنشائيًّا ، وهذا هو شعره فى بدر أكثر من عشرين قصيدة سلفت الإشارة إليها ، تؤيد كلها هذا المعنى وتدل عليه ، وسنرى مواقفه فيما يأتى من المشاهد والأحداث متفقة مع هذا الرأى أيضاً .

---

(١) الديوان رقم ٥٠ وابن هشام : السيرة ٢/٣١٥ .
(٢) الديوان رقم ٧٦ و ٨٠ .
(٣) الديوان الأرقام ٣ و ٤٧ و ٧٦ و ١٥١ .
(٤) الديوان رقم ٤٥ و ١٢٨ .
(٥) الديوان ٢٠٧ .
(٦) ابن هشام : السيرة ٣/٢٤ .
(٧) الديوان الأرقام ٤٩ ، ٧٦ ، ١٥١ .
(٨) ابن هشام : السيرة ٢/٣١٩ و ٣/٢٣ والديوان رقما ٣٦ و ٤٤ .
(٩) ابن هشام : السيرة ٣/٥٦ .

وقد روى ابن هشام[١] أسماء من شهدوا بدراً من المهاجرين والأنصار ، وليس فيهم حسان بن ثابت ، وفيهم أخواه أوس وأبو شيخ أبَيّ ابنا ثابت ، وزيد بن سهل من بنى عمومته .

وقد غاظ قريشاً ما أصابهم ، ونقموا من الأنصار أنهم كانوا أنصار الله ورسوله فيما حل بهم ، فهجوهم ونالوا منهم ، فذهبوا إلى الرسول يستأذنونه أن يردوا عليهم فأذن لهم ، فمشوا إلى عبد الله بن رواحة ، فقال فى ذلك شعراً لم يبلغ الذى أرادوا . فأتوا كعب بن مالك فلم يبلغ بقوله ما أرادوا ، فأتوا حسان فأخبروه ، فقال : لست فاعلا حتى أسمع ذلك من النبى ، فانطلق معهم حتى أتاه ، فقال يا رسول الله . أنت أذنت لهؤلاء ؟ فقال : ما أكره أن ينتصروا ممن ظلمهم ، وأنت يا حسان لم تزل مؤيداً بروح القدس ما نافحت عن رسول الله . فانظر كيف كانت نهاية مطاف القوم بباب حسان، وانظر إلى جميل أدبه مع الرسول وتحرزه عن الانتقام لقومه من أعدائهم حتى يلقاه ويسمع الإذن منه ، ثم انظر إليه كيف حرَص على حفظ القرآن وقت نزوله حتى استطاع أن يقبس منه فى شعره ببدر ما نزل فيها حين يقول[٢] :

دَلاَّهُمُ بغُرورٍ ثم أَسْلَمَهُمْ ... إن الخَبيثَ لمن والاه غَرَّارُ
وقال إنى لكم جارٌ فأَوْرَدَهمْ ... شَرَّ المَوارِدِ فيه الخِزْىُ والعارُ

وذلك أخذاً من قوله تعالى فى سورة الأنفال : « وإذ زين لهم الشيطانُ أعمالهم وقال لا غالبَ لكم اليومَ من الناس وإنى جارٌ لكم فلما تراءت الفئتان نَكَصَ على عَقبيه » . ومن قوله تعالى فى سورة الأعراف : « فدَلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرةَ بَدَت لهما سوءاتهما وطَفِقا يخصِفان عليهما من ورق الجنة » .

وقعد حسان لقريش بالمرصاد ينتهز كل فرصة للنيل منهم ، وتوهين عزمهم ، والإيقاع بينهم ، فلما قتل هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى أبا أزَيهِرٍ الدَّوسِىَّ بسوق ذى المجَاز ، وكان عند صهره أبى سفيان بن حرب ، انبعثَ حسان يحرض

---

(١) تاريخ دمشق ٤/١٢٦ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٢/٣١٩ .

فى دم أبى أزَيهر ، ويعير أبا سفيان خُفْرته ويجبنه قائلا [١] :

غداأهلُ حِضْنَىْ ذى [١] المَجَازِ بِسُحْرَةٍ وجارُ ابنِ حربٍ بالمُحَصَّبِ ما يَغْدُو

فلما بلغ قوله يزيد بن أبى سفيان خرج وهو فى الحديد فجمع قومه للثأر بالقتيل لولا أن أدركه أبوه قائلا : يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض فى رجل من دوس ! بئس والله ما ظن [٢] . واتجه حسان إلى دوس يستثيرها ويدعوها للثأر بقتيلها قائلا [٣] :

يا دَوْسُ إنَّ أَبا أُزَيْهِرَ أَصبحتْ أَصْدَاؤُهُ رَهْنَ المُضَيَّحِ فاقْدَحِى
حرباً يَشيبُ لها الوَليدُ ، وإنما يَأْتِى الدَّنِيَّةَ كلُّ عَبْدٍ نُحْنُح

لقد وهب حسان نفسه لله مذ أسلم ، ووقف لسانه على الإسلام منذ أقامه الرسول على الدعاية ، فأعداءَه يهجو ويتوعد ، وإياهم يلوم ويبكت ، وفيهم يتشفى ، وعليهم يحرّض ، وإلى سبيله يدعوه يؤرخ ، ومشاهده وآياته الخالدات يصف ، وشهداءه وأبطالَه يَرثى ، ورسولَه وأصحابه يمدح .

ولعه بالفخر بقومه

قهر حسان للإسلام كل شهوة فى نفسه ، وغلبَ كل رغبة ترددت بين جنبيه ، إلا شهوة قوية قهرته ، ورغبة جامحة غلبته ، تلك هى شهوة الفخر بآبائه ومجدهم ، وحب الزهو بنفسه وبهم ، فلم يعدم أن يفتح بين ما أحب وبين الإسلام باباً ، وأن يقيم له فى رحاب الدين منبراً ويبنى محراباً ، وأن يؤلف منه مزامير تلقى فى ساحته أناشيد وتتلى فى مجامعه كتاباً .

فى أربع عشرة [٤] من قصائد فخره الإسلامى التى بلغت أربعاً وثلاثين عدداً ، يفخر حسان بفعال قومه فى الإسلام ، وحسن بلائهم فى الدفاع عنه ، وما قدموا لله

---

(١) الديوان رقم ١٩٥ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٢/٥٥ .
(٣) الديوان رقم ٢٠٣ .
(٤) الديوان : الأرقام ٣ – ١١ – ١٥ – ١٦ – ٣٦ – ٤٤ – ٥٦ – ٦١ – ٦٣ – ٧٦ – ٩٥ – ١٣١ – ١٣٢ – ١٣٧ .

ورسوله من نصر وتأييد وإعزاز دين . وفى إحدى عشرة قصيدة أخرى[١] يخلط بهذا الفخر فخراً بقومه وآبائه وما لهم من مجد مؤثل ونسب عريق ، ويشيد بمفاخر نفسه ومواهب قلبه ولسانه ويده. ثم يفرد التسع الباقية[٢] للتغنى بالأنساب والأحساب ومفاخر أسلافه ومجدهم العريض الضارب فى غابر الأيام .

مضت بدر ، وبقيت نفوس قريش تغلى بالحفيظة والموجدة والثأر ، فاجتمعوا على حرب رسول الله ، وخرجوا بحَدِّهم وحديدهم وأحابيشهم[٣] معهم الظُّعن[٤] بعثاً للحميّة ، وقائدهم أبو سفيان بن حرب حتى نزلوا « أحداً » إلى الشمال من المدينة فى العام الثالث الهجرى ، ولقيهم المسلمون هناك ، ووقعت الواقعة واستحرّ القتل ، وكان النصر بين يدى المسلمين ، وسقط لواء المشركين بعد أن قتل حملته متعاقبين ، حتى أراد الله أن يبلو المؤمنين ، فخالفوا عن أمر الرسول فأتاهم العدو من خلفهم وقتل منهم من قتل ، وفى القتلى أسد الله حمزة بن عبد المطلب ، ومشت هند بنت عتبة والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من أصحاب الرسول ، يَجْدَعْنَ منهم الآذان والأنُف ، واتخذت هند منها خَدَماً[٥] وقلائد وأقراطاً ، وأعطتها وَحشيًّا قاتل حمزة ، وبَقَرت[٦] عن كبده فلاكتها[٧] ثم لفظتها ، ثم علت صخرة مشرفة ، فصرخت بأعلى صوتها ترتجز بالمسلمين :

نحنُ جَزَيْناكمْ بيوم بَدْرِ ... والحربُ بعدَ الحربِ ذاتُ سُعْرِ[٨]
ما كان عن عُتبةَ لِى من صَبْرِ ... ولا أَخى وعمِّهِ وبِكْرِى
شَفَيْتُ نفسِى وقَضَيْتُ نَذْرِى ... شَفَيْتَ وَحْشِىُّ غليلَ صَدْرِى

---

(١) الديوان : الأرقام — ٨٠ — ٥ — ١٧٥ — ١ — ١٧ — ٢٩ — ١٦١ — ١٦٦ — ٣٥ — ٧٩ — ١٤٣ .

(٢) الديوان : الأرقام ٢٣ — ١٤٠ — ٦ — ٧ — ٧٧ — ٧٨ — ١٢٢ — ١٢٨ — ١٧٣ .

(٣) الأحابيش من اجتمعوا إلى العرب وليسوا منهم .

(٤) الظعن : النساء فى الهوادج .

(٥) الخدم : جمع خدمة وهى الخلخال .

(٦) بقرت : شقت .

(٧) مضغتها .

(٨) السعر : الالتهاب .

فشُكْرُ وَحْشِيٍّ علىَّ عُمْرى حتى تَرِمَّ أَعْظُمِى فى قَبْرِى[١]

وقالت :

شَفَيْتُ من حمزةَ نفسى بأُحُدْ حتى بَقَرْتُ بَطنَهُ عن الكَبِدْ
أَذْهَبَ عنى ذاكَ ما كنتُ أَجِدْ من لَذْعَةِ الحزنِ الشديدِ المُعْتَمِدْ[٢]
والحربُ تَعْلُوكُمْ بشُؤْبوبٍ بَرِدْ تُقْدِم إقداماً عليكم كالأَسَدْ[٣]

وخلص المشركون إلى الرسول ، فرَمى بالحجارة حتى وقع لجنبه ، وكسرت رَبَاعِيَتُه[٤] ، وشُجَّت[٥] جَبهته ، وكُلِمَت[٦] شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المِغفر[٧] فى وجنته ، وجعل الدم يسيل على وجهه الشريف . وكان لعتبة بن أبى وقاص اليد الطولى فى ذلك الإثم الأثيم[٨] ، وأقبل بعد ذلك أُبَىّ بن خلف يركض جواده نحو الرسول هاتفاً : أى محمد . لا نجوتُ إن نجوتَ ، فلما دنا تناول الرسول الحربة ، فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ[٩] منها عن فرسه مراراً[١٠] .

لقد شهد أُحُداً من المسلمين سبعمائة مقاتل ، استشهد منهم سبعون رجلا ، منهم أوس بن ثابت أخو حسان[١١] .

ولم يكن حسان فى الشهداء ولم يكن بين المقاتلين . فأين كان إذاً ؟ إن حسان نفسه هو الذى يبين للناس أين كان .

ذهب عمر بن الخطاب إلى حسان بن ثابت بعد الموقعة ، يحرضه على هجاء

---

(١) ترم : تبلى وتتفتت .
(٢) المعتمد : القاصد المؤلم .
(٣) الشؤبوب : دفعة المطر الشديدة . برد : ذو برد .
(٤) الرباعية : السن المجاورة للناب .
(٥) شج : كسر أو قطع .
(٦) كلمت : جرحت .
(٧) لباس الرأس فى الحرب من حلق الحديد .
(٨) ابن هشام : السيرة ٣/٨٤ .
(٩) تدأدأ : انقلب وجعل يتدحرج .
(١٠) ابن هشام : السيرة ٣/٨٩ .
(١١) ابن هشام : السيرة ٣/١٣٣ .

هند بنت عتبة ، ويقول له : يابن الفريعة . لو سمعت ما قالت هند ، ورأيت أشرها[١] قائمة على صخرة ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعت بحمزة ! قال له حسان : والله إنى لأنظر إلى الحربة تهوى وأنا على رأس فارع — يعنى أطمه — فقلت : والله إن هذه لسلاح ما هى بسلاح العرب ، وكأنها إنما تهوى إلى حمزة ولا أدرى ، لكن أسمعنى بعض قولها أكفكموها ، فأنشده عمر بن الخطاب بعض ما قالت ، فقال حسان قصيدته :

أَشِرَتْ لَكَاعٍ وكان عادتُها لؤماً إذا أَشِرَتْ مع الكُفْرِ[٢]

وهذه القصة ذات أربع شعب : الأولى أن حسان يوم أحد كان معتصماً برأس حِصنه يرقب منه المعركة ، والصحابة يُقتلون ويَقتلون ، والرسول يناله من الشر ما يناله . الثانية أن أحداً لم ينكر عليه ذلك ولم يوجه إليه فيه لوماً ، حتى عمر بن الخطاب المعروف بشدته فى الحق . الثالثة أن عمر بن الخطاب راح يستعديه على هند ، كأن عنده طبّ ما جرحت ، وقد كان معه فى أحد وشهد ما شهد وسمع ما سمع ابن رواحة وكعب بن مالك[٣] ، ولو أن عمر وهو ذو بصر بالشعر وجد عندهما على حسن بلائهما فى الدفاع عن الإسلام بالسيف والشعر ما يغنيه عن حسان ما ذهب إليه . الرابعة أن حسان على تقدم سنه وضعف بصره[٤] يظن أنه رأى الحربة وعرف أنها سلاح ما هى بسلاح العرب وبينه وبينها أميال .

ونكتفى الآن بهذه الإشارة لنعود إلى حسان فنرى مواقفه من المشركين يوم أحد . لم يكف حسان ما نال من هند بقوله السالف ، فأتبعه بأبيات غيرها على الدال ، وأبيات أخرى على الذال . تركتها السيرة لأنه أقذع فيها[٥] ، ورماها بسهام متقدة من هجائه ، مزقت عرضها وهتكت سترها ، هى شر ما ترمى به امرأة[٦] ، وعطف

---

(١) الأشر : المرح والاختيال والطغيان بالنعمة .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٣/٩٨ الأغانى ١٤/٢٠ . الديوان رقم ٢١٤ .

(٣) شهد ابن رواحة المشاهد كلها حتى قتل يوم مؤتة سنة ٨ هجرية (ابن هشام ٢/١٠١) وشهد كعب المشاهد كلها إلا بدراً فى السنة الثانية وتبوك سنة ٩ هجرية . ابن هشام : السيرة ٢/٧٧ و ١٠٥ و ٤/١٢١ و ١٧٥ .

(٤) عمى حسان فى خلافة عمر بن الخطاب بعد ذلك بسنوات .

(٥) ابن هشام : السيرة ٣/٩٨ .

(٦) الديوان رقما ٢٢٤ و ٢٢٥ .

على زوجها أبى سفيان بن حرب ، يحاجُّه ويكذبه فيما ادعاه من قتله القروم الكرام من هاشم وبنى النجار ، ويذكره قتلى قريش وما أصابها[١] فى قوله :

ذكرتَ القُرُومَ الصِّيدَ من آل هاشِمٍ ولستَ لِزُورٍ قُلْتَهُ بمُصِيبِ

وراح يعير المشركين سقوط لوائهم ، وكيف زالوا عنه حتى رفعه عبدٌ لهم مرة[٢] :

فَخَرْتُمْ باللِّواءِ وشَرُّ فَخْرٍ لواءٌ حينَ رُدَّ إلى صُوَّابِ[٣]

وتناولته امرأة من كنانة ليست منهم مرة أخرى[٤] :

فلولا لواءُ الحارِثِيَّةِ أصبحوا يُباعون فى الأَسواق بَيْعَ الجَلَائِبِ[٥]

ثم التفت إلى عُتبة بن أبى وقاص ، يدعو عليه ، ويهجوه بسوء حياته فى قومه وسوء منقلبه[٦] ، واتجه إلى أُبَيّ بن خَلَفٍ الجُمَحىّ يقول فيه :

لقد وَرِثَ الضلالة عن أَبيه أُبَيٌّ يومَ بارَزَهُ الرسول

ثم يقول فيه[٧] :

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ عنى أُبَيًّا لقد أُلْقِيتَ فى سُحُقٍ السَّعِير

وانثنى إلى شعراء قريش يجيبهم ويناقضهم ويفحمهم ، فتراه يجيب هبيرة ابن أبى وهب المخزومى بقوله[٨] :

سُقْتُمْ كِنانةَ جهلاً من سفاهتكم إلى الرسول ؛ فجُنْدُ الله مُخْزِيها

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٨١ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٨٣ والديوان رقم ٢٠٠ .
(٣) عبدهم الذى رفع اللواء .
(٤) ابن هشام ٣/٨٣ والديوان رقم ٣٥ .
(٥) الجلائب ما يجلب للأسواق فيباع فيها .
(٦) ابن هشام ٣/٨٥ . الديوان رقم ٥٨ .
(٧) ابن هشام ٣/٩٠ .
(٨) ابن هشام ٣/١٣٨ والديوان رقم ٦١ .

ويرد على ابن الزبعرى قوله[١] :

يا غرابَ البَيْنِ أَسْمَعْتَ فقلْ إنما تَنْطِقُ شيئاً قد فُعِلْ

بقوله[٢] :

ذَهَبَتْ بابنِ الزِّبَعْرَى وقعةٌ كان منا الفَضْلُ فيها لو عَدَلْ

ثم يرد عليه أخرى بقوله[٣] :

أَشَاقَكَ من أُمِّ الوَليدِ رُبُوعُ بَلاَقِعُ ما من أَهْلِهِنَّ جَمِيعُ

ويقول أبو سفيان بن الحارث :

أَلاَ من مُبْلِغٌ حَسَّانَ أَنى خَلَفْتُ أَبى ولم تَخْلُفْ أَباكا

فيجيبه حسان قائلا :

لأَنَّ أَبى خِلافَتُهُ شَدِيدٌ وأَنَّ أَباك مِثْلَكَ ما عَدَاكا[٤]

ثم يغلبه الحزن على قتلى أحد ، ويبلغ منه مقتل حمزة فيندبهم ويبكيهم[٥] :

يامَنْ قومى فانْدُبِنْ بسُحَيْرَةٍ شَجْوَ النوائحْ

ثم لا يشتفى فيقول فى حمزة[٦] :

أَتعرفُ الدارَ عفا رسْمَها بعدَكَ صَوْبُ المُسْبِلِ الهاطِلِ

وتجىء أمامة ابنة حمزة إلى المدينة تسأل عن قبر أبيها ، فتستثير حزنه عليه ، فيبكيه مرة أخرى[٧] :

تُسائِلُ عن قَوْمٍ هِجَانٍ سَمَيْدَعٍ لدى البأْسِ مِغْوارِ الصباحِ جَسُورِ

---

(١) الأغانى ١٠/١٤ .
(٢) ابن هشام ١٤٤/٣ .
(٣) ابن هشام ١٤٩/٣ الديوان رقم ١٧٥ .
(٤) الديوان رقم ٨١ .
(٥) ابن هشام ١٥٩/٣ .
(٦) ابن هشام : السيرة ١٦٣/٣ والديوان رقم ١٦٤ .
(٧) الديوان رقم ٣٨ .

ويعمل حسان قريحته فيواتيه الشعر فيقول فى أحد ، وأصحاب لواء المشركين فيها ، حتى إذا أعجبه قوله هتف بقومه ليلا وقد أتمه ، حتى إذا اجتمعوا إليه قال لهم : خشيت أن يدركنى أجلى قبل أن أصبح فلا تروها عنى[١] .

وهكذا كان حسان يستخفه الطرب لإبداعه الفنّ ، ويذهب به الزهو بشعره كل مذهب .

ولم ينس حسان فى قصيدته هذه وفى ساعة الهزيمة المحزنة أن يفخر بنفسه ونسبه وأبيه وخاله فخراً طويلا، ومطلعها[٢] :

مَنَعَ النومَ بالعِشاءِ الهُمومُ وخيالٌ إذا تَغُورُ النُّجومُ

وهكذا كان حسان غازياً بشعره ولسانه ، لم يترك موضعاً من الأعداء يطعن فيه إلا طعن ، ولا غميزة إلا اقتنصها ، والقوم أهل حفيظة وحمية وفصاحة وشعر ولسن ، ينال منهم القول ما يناله الرمح والسيف . واستمر حسان فى غزوه هذا يتابع المواقع والغزوات خطوة خطوة ، وكان إلى جانبه من المسلمين شعراء يقاولون ويهجون كعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وعلى بن أبى طالب ، وطالب بن أبى طالب وغيرهم ، ولكنه كان قائد هذه الحلبة المُجَلِّى ، تفرغ لهذا اللون من الدفاع وتمرس به ، وشُغلوا هم عنه بغيره ، ولم يكونوا مثله فيه .

فى عام أحد هذا غدرت قبيلتا عضل والقارّة من الهُون بن خُزَيْمَة بن مُدْرِكَة ببعث رسول الله ، الذين ساروا معهم ليفقهوهم فى الدين ويقرئوهم القرآن ، وفيهم خُبَيْبُ ابن عَدِىّ الأوسى ، وظاهرهم فى العدوان قبيلة لَحْيان بن هذيل بن مدركة ، فقتلوا منهم من قتلوا عند الرجيع[٣] ، وحملوا خُبَيْباً وصاحبيه إلى مكة ، فصلبوا خُبيباً وقتلوا صاحبيه[٤] ، وكان لهذا الحادث وقع شديد الأثر فى نفس حسان ، فرثى الشهداء بإحدى عشرة قصيدة رثاء حارًّا[٥] ، وهجا الغادرين هجاء مرًّا ، امتاز بما فيه

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/١٥٨ .

(٢) ابن هشام : السيرة ٣/١٥٦ الديوان رقم ٥ .

(٣) ماء لهذيل بناحية الحجاز .

(٤) ابن هشام : السيرة ٣/١٧٨ وما بعدها .

(٥) ابن هشام : السيرة جـ ٣ الصفحات ١٨٦ — ١٨٧ — ١٨٨ — ١٨٩ — ١٩١ — ٩٢ الديوان الأرقام ٦٦ — ٦٧ — ٦٨ — ٧٥ — ٩٨ — ١٠٦ — ١٢٠ — ٢٠٢ .

من الصور الساخرة ، والنقائص السافرة ، وكان تحرُّقه على خبيب شديداً ، ربما كان ذلك لأخوة ومودة كانت بينهما ، وربما كان لأن خبيباً ذاق عذاب الصلب وحده دون إخوانه الذين قتلوا .

ثم قدم أبو براء عامرُ بن مالك مُلاعِبُ الأسنّة[١] فى العام الرابع ، يسأل الرسول أن يرسل جماعة من أصحابه إلى أهل نجد يدعونهم إلى الله ، على أن يكون لهم جاراً ، فأرسل إليهم الرسول بعثاً فى أربعين أو سبعين رجلا من أصحابه ، فيهم المنذر بن عمرو الساعِدى ، ونافع بن بُدَيْل بن وَرْقاء الخُزَاعى ، فساروا حتى نزلوا ببئر مَعُونَة ، بين أرض بنى عامر وحَرّة بنى سُليم ، وأرسلوا رسولهم بكتاب إلى عامر ابن الطفيل « ابن أخى أبى براء » فلما أتاه لم ينظر فى كتابه ، وعدا على الرسول فقتله ، واستصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه ويُخفِروا أبا بَراء ، فاستصرخ عليهم قبائل بنى سليم فاستجابوا له ، وأحاطوا بالقوم فى رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، وقاتلوهم حتى قتلوا إلا كعب بن زيد أخا بنى النجار ، تركوه وبه رمق .

فقام حسان يحرض بنى أبى براء على عامر بن الطفيل ، ويدعوهم للثأر قائلاً[٢] :

بنى أُمِّ البنينَ[٣] ألم يَرُعْكُمْ ... وأنتم من ذَوَائِبِ أهل نَجْدِ
تَهَكُّمُ عامرٍ بأَبِى بَرَاءٍ ... لِيُخْفِرَهُ وما خطأٌ كَعَمْد

فحمل ربيعة بن أبى براء على عامر بن الطفيل فطعنه بالرمح فسقط عن فرسه[٤] ، وجعل حسان يبكى شهداء مَعونَة ، ويخص منهم المنذر بن عمرو بن خُنَيس ابن عم أمه الفريعة ، ويذكر غدر الغادرين فى شعر له[٥] :

---

(١) سمى أبو براء ملاعب الأسنة لقوله يخاطب أخاه ، وكان قد فر عنه فى حرب كانت بين قيس وتميم :

فَرَرْتَ وأَسْلَمْتَ ابن أمك عامراً ... يُلاعب أَطرافَ الوَشِيج المُزَعْزَعِ

(٢) ابن هشام : السيرة ٣/١٩٦ الديوان رقم ١١١ .

(٣) أم البنين وهى أم أبى براء وكان بنوها خمسة كلهم نجباء فرسان وهم : طفيل وعامر (أبو براء) وربيعة (والد لبيد الشاعر) وعبيدة الوضاح ، ومعاوية معوِّد الحكماء .

(٤) ابن هشام : السيرة ٣/١٩٣ وما بعدها .

(٥) ابن هشام : السيرة ٣/١٩٨ ، الديوان ص ٩٤ .

على قَتْلَى مَعُونَةَ فاستَهِلِّي بدمعِ العيْنِ سَحًّا غيرَ نَزْرِ

ويقول فى رثاء نافع بن بُدَيْل الخزاعى[١] :

رحم الله نافعَ بنَ بُدَيْلٍ رحمةَ المُشْتَهِى ثوابَ الجِهادِ

وكان رسول الله قد واعد أبا سفيان بن حرب يوم أحد على اللقاء فى العام التالى، فخرج فى أصحابه إلى بدر الموعد ، فأقاموا ثمانى ليال ينتظرون أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان فى قومه غير بعيد من مكة. ثم بدا له أن يرجع بهم فرجعوا ، وكانوا قد عدلوا بتجارتهم إلى الشام عن طريقها خشية أن يفجأهم المسلمون ، فلم ينفعهم ذلك. وأغار المسلمون على عيرهم واستولوا عليها، فقال حسان يعيرهم تخلفهم عن الموعد المضروب ، ويفخر بخروج المسلمين إليهم فى جيش جرار ، ويتهكم بهم لفرارهم بتجارتهم إلى طريق جديد ؛ وما أصاب عيرهم به على أيدى المهاجرين والأنصار ، ويهجو أبا سفيان بن حرب[٢] :

أَقمْنا على الرَّسِّ[٣] النَّزِيعِ لياليَا بأَرْعَنَ[٤] جَرَّارٍ عريضِ المَبارِك

فانبرى له أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوه بأنه ليس من المهاجرين ، وليس فى النساك العابدين ، ويفخر بجيش كثيف خرجوا لموعدهم فيه[٥] .

ثم كانت غزوة الخندق سنة خمس ، وخرجت قريش ومعها أحابيشها ومن تبعهم من بنى كنانة وتهامة يقودها أبو سفيان بن حرب ، وغَطَفان ومن تبعها من أهل نجد يقودها عُيَيْنَة بن حصن الفزارى ، وعلى بنى مُرَّة الحارث بن عوف المرى ، وعلى أشْجَع قائدها مِسْعَر بن رُخَيْلة ، فلما سمع بهم الرسول ضرب الخندق حول المدينة ، وعمل فيه ترغيباً للمسلمين وعملوا معه ، وارتجزوا وهم يعملون فكان يرد معهم ، وأقبل المشركون فى عشرة آلاف ، فحاصروا ثلاثة آلاف من المسلمين قريباً من شهر . يرمونهم بالنبل والخندق قائم بينهم ، وقد جعلت الذرارى والنساء بالآطام ، واشتد البلاء

---

(١) الديوان رقم ٤٠ .

(٢) الديوان رقم ١٦ : ابن هشام : السيرة ٣/٢٢٠ وما بعدها .

(٣) الرس النزيع : البئر القريبة الماء يؤخذ ماؤها باليد .

(٤) الأرعن : الجيش الكبير .

(٥) ابن هشام : السيرة ٣/٢٢٢ وما بعدها .

على المحاصرين ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وظن المؤمنون بالله الظنون .

واقتحم الخندق فوارس من قريش. عمرو بن عبد وُدّ وعِكْرمة بن أبي جهل وهُبَيْرة بن أبي وهب المخزوميان ، وضرار بن الخطاب الفِهرى ، فقتل عمرو ، وألفى عكرمة رمحه وهو منهزم عنه ، وفروا راجعين ، وأصيب سعد بن مُعاذ إصابة قاتلة ، وأقام المسلمون فى خوف وشدة وعناء وبلاء حتى أكرمهم الله بتخاذل المشركين ، وبما بعث عليهما من ريح صرصر عاتية فى ليال ممطرة باردة ، كفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم فولوا مدبرين ، « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »[١] .

ما يقال عن جبنه

فى هذا الفزع كان حسان بحصنه فارع ، وكانت صفية بنت عبد المطلب أيضاً فى هذا الحصن ، فلنسمع حديثها عنه . قالت : وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان ، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت . فقلت : يا حسان إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن ، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وَرَاءَنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل إليه فاقتله . قال : يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت : فلما قال لى هذا ولم أر عنده شيئاً احتجزت[٢] ثم أخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته ، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن ، فقلت يا حسان : انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل ؛ قال مالى بسَلَبه من حاجة يابنة عبد المطلب[٣] . وابن عساكر يروى هذه القصة مع اختلاف يسير[٤] ، ويذكر من حديث صفية أن اليهودى ترقى إليهم فأطل عليهم فى الأطم ، فقالت لحسان : قم إليه فاقتله ، فقال : ما ذاك فىّ ،

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/١٢٤ .
(٢) احتجز : شد وسطه .
(٣) ابن هشام : السيرة ٣/٢٣٩ والأغانى ٤/١٥ .
(٤) تاريخ دمشق ٤/١٣٩ - ١٤٠ .

لو كان ذاك فىّ لكنت الآن مع رسول الله . فقالت له : اربط السيف على ذراعى فربطه ، فقامت إلى اليهودى حتى قطعت رأسه ، ثم قالت لحسان : خذ بأذنه فارم برأسه إليهم — واليهود أسفل الحصن — فقال : والله ما ذاك فىّ ، فأخذت رأسه فرمت به عليهم .

وقيل إن حسان فى ذلك اليوم جعل ينظر إلى النبى من حصنه ، حتى إذا رآه شدّ على المشركين شد معه وهو فى الحصن ، فإذا رجع عنهم رجع [١] . وقال مصعب ابن الزبير — وكان فى الحصن إذ ذاك صبيًّا مع الصبيان — إن حسان بن ثابت ضرب وتداً فى آخر الأُطُم ، فكان إذا حمل الصحابة على المشركين حمل على الوتد فضربه بالسيف ، وإذا كر المشركون انحاز عن الوتد حتى كأنه يقاتل قِرْناً . يتشبه بالمجاهدين ، كأنه يرى أنه مجاهد حين جبن فلما ذكروا ذلك للنبى ضحك حتى بدت نواجذه . قالوا : وما رئى النبى ضحك من شىء قط ضحكه منه [٢]

وقالوا إن حسان وقف يوماً ينشد الرسول قوله :

لقد غَدَوْتُ أَمام القوم مُنْتَطِقاً ... بصارمٍ مثلِ لونِ المِلْحِ قَطَّاعِ
تَحْفِزُ عنِّى نِجادَ السيفِ سابِغَةٌ ... فِضْفاضَةٌ مثلُ لونِ النِّهْىِ بالقَاعِ

فضحك رسول الله ، فظن حسان أنه ضحك من صفته نفسه مع جبنه [٣] .

وهكذا لا نرى لحسان ظلا بمواقع الإسلام بين المجاهدين ، ونرى الأخبار متواترة على تخلفه ، مفصلة لحاله فيه ، ونرى أكثر الذين أرّخوا له يصفونه بالجبن [٤] . ثم لا نرى إنكاراً عليه ولا إعراضاً عنه من الرسول أو من أحد الصحابة ، بل نرى الرسول وأصحابه يأخذون ذلك مأخذ الأمر المقرر ، على حين كان الرسول لا يعذر متخلفاً قادراً . وما كان شعرُه ليعفيه من القتال فى سبيل الله ، فقد كان له من قومه صاحبان شاعران ، وكان لهما فضل السبق إلى دين الله ، سعيا إلى الإسلام قبل

---

(١) تاريخ دمشق ٤/ ١٤٠ .
(٢) تاريخ دمشق ٤/ ١٤٠ والأغانى ٤/ ١٥ .
(٣) تاريخ دمشق ٤/ ١٤٠ والأغانى ٤/ ١٦٠ .
(٤) ابن هشام : السيرة ٣/ ٢٣٩ — ابن الأثير الكامل ٢/ ٧٥ — البداية والنهاية ٤/ ١٠٨ الإصابة ٢/ ٨ — تهذيب التهذيب ٢/ ٢٤٧ — الاستيعاب ١/ ١٢٩ — أسد الغابة ص ٦ — تاريخ دمشق ٤/ ١٣٩ — ١٤٠ — الأغانى ٤/ ١٥ و ١٦ — مفتاح السعادة ١/ ١٩٠ — خزانة الأدب ١/ ١٥٧ — الشعر والشعراء ص ١٠٤ — طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ١٢٧ .

أن يسعى إليهما الإسلام وبايعا فى العقبة الثانية ، وقاتلا إلى ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهد عبد الله بن رواحة المشاهد كلها . حتى قتل يوم مؤتة بالشام شهيداً أميراً على جيش الرسول فى السنة الثامنة (١) .

وأبلى كعب بن مالك بشعره فى الإسلام بلاءً يدنيه من حسان ، وأبلى بسيفه فى جميع الغزوات والمعارك — سوى بدر — بلاء كان من حقه أن يشفع له يوم تخلفه عن تبوك فى السنة التاسعة ، فلم يغن ذلك عنه شيئاً ، ودعا الرسول أصحابه إلى مقاطعته ومن تخلفا معه ، فما كلمهم أحد خمسين يوماً ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، ثم تاب الله عليهم (٢) .

وكان لحسان خصوم كثيرون طالما سلقهم بلسانه الحاد جاهلية وإسلاماً ، فلم يعيره أحد منهم جبنه ، وكان حقاً أن تكون هذه التهمة أول معول فى هدم شاعر يتغنى ببلاء قومه وبشجاعته فى الحروب ، ويعير خصمه من المشركين فراره عن أخيه يوم بدر قائلا :

تَرك الأَحبّةَ أَن يُقاتِلَ دونَهُمْ ونجا برأس طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

لابد إذاً أن حسان كان معذوراً فى قعوده عن القتال ، وكان على حال يجعله قليل الغناء فى الحروب ، بل ربما كان حملا على غيره من المحاربين . وكان بعده عن المعركة خيراً له ولهم ، فربما كان سميناً مفرطاً فى السمن بطىء الحركة ، وربما كان نحيلا ضئيلا مريضاً ضعيف المُنّة ، وربما كان مصاباً بعلة لا يقوى معها على مقارعة الخصوم والكر والفر فى ساحة الحرب ، ولا شك فى أن شيئاً من هذا يستصحب فى العادة علة نفسية مخامرة ، وقد عرف ذلك من نفسه ، فمال بها عن مواطن الصراع وتجنب الهيجاء ، وربما كانت هذه العلة أصيلة قديمة ، وربما كانت حديثة طارئة ؛ ولكنه على هذا أو ذاك قد يكون شجاع القلب ، جرىء الرأى ، ماضى حد العزم ، توّاقاً إلى أن تسعفه أسباب القدرة فيجول ويصول ، ويبدو أن حديثه عن سيفه وشجاعته كان صدى لهذه الخواطر الحبيسة الجياشة فى صدره ، وتعبيراً عن أمان مكبوتة ، تحاول أن تنطلق إلى عالم الحقيقة ، فصورها قولا حين

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢/١٠١ .

(٢) ابن هشام ٤/١٧٥ وما بعدها .

عجز عن إدراكها عملا . وقد يكون فيما جاء ببعض المراجع عنه تأييد للرأى السالف . يقول ابن الكلبى : « لم يكن الجبن من عادة حسان ، بل كان لسناً شجاعاً ، فأصابته علة أحدثت فيه الجبن ، فكان بعد ذلك لا يقدر أن ينظر إلى قتال ولا يشهده »[١] ثم لا يبين نوع تلك العلة أهى بدنية أم نفسية ، وإن كان يمكن أن يحمل قوله هذا على أن إصابته كانت عصبية نفسية أكثر منها جسمية .

وقد يكون فيما نقله الزبير عن الواقدى بيان لتلك العلة ، قال :

« كان أكحل[٢] حسان قد قطع فلم يكن يضرب بيده »[٣] . فإذا أضفنا إلى ما نقل الزبير قول حسان لصفية : « والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا » وقوله لها : « ما ذاك فىّ ، لو كان ذاك فىّ لكنت الآن مع رسول الله » كان ذلك أدنى إلى تصور حسان معتلا بعلة متعارفة ، تعجزه عن القتال ، وتدعوه إلى البعد بنفسه عن مواطنه ، وتدعو الرسول والناس إلى التماس العذر له فى تخلفه عنه ، ويغلب أن تكون هذه العلة جسمية ، ولدت علة أخرى نفسية .

والذى يبدو أن أسباب تلك العلة ملازمة لحسان منذ بعيد ، فإننا — على ما سبق — لم نجد له فى جاهليته موقفاً واضحاً صريحاً قاتل فيه ، مع أن قريعه قيس بن الخطيم كان شاعراً وكان فارساً ، وله مواقفهُ فى حروب قومه ، وشعره واضح الدلالة على ما صنع فيها . ذكروا أن الرسول صلى الله عليه وسلم جلس فى مجلس ليس فيه إلا خزرجى ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم الأوسى :

أتعرفُ رسماً كاطِّرادِ المَذاهب لعَمْرَةَ وَحْشاً غيرَ موقفِ راكب؟

فأنشده بعضهم حتى بلغ إلى قوله :

أُجالِدُهم يومَ الحَدِيقةِ حاسرًا كأَن يَدِى بالسيف مِخْراقُ لاعبِ[٤]

---

(١) تاريخ دمشق ٤/١٤٠ .

(٢) عرق فى اليد .

(٣) الأغانى ٤/١٦ .

(٤) الحديقة قرية بضواحى المدينة . الحاسر : من لا جنة له من مغفر أو درع . المخراق : المنديل يلف ليضرب به .

فالتفت إليهم الرسول فقال : هل كان كما ذكر ؟ فقال ثابت بن قيس : والذى بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه ، عليه غلالة وملحفة موَرّسة فجالدنا كما ذكر [١] .

والذى لاشك فيه أن حسان كان يرمى بالجبن على ما سلف ، وقد تناقلت الأجيال هذا الاتهام ، حتى انتهى إلى أبى العلاء المعرى ، فشهره وجعله مضرب الأمثال حين قال :

وما نَفْسُ حسانَ الذى شاعَ جُبْنُهُ بأَسلمَ من نَفْسِ الكَمِيِّ المُخَالِسِ [٢]

حسان وزير الدعاوة الإسلامية

وليس يضير حسان وقد بدا عذره أن يقعد عن القتال ، فقد كان يقاتل فى ميدان آخر واسع ، ويحارب فى جبهة عريضة حرباً لا هوادة فيها ، كان وزير الدعاية الإسلامية ، وما كان أشد حاجة الدعوة الإسلامية ، وما أشد حاجة الدعوات الإصلاحية والمبادئ الجديدة عامة إلى دعاية ، تنشر فضائلها وتحبب فيها ، وتسندها وترد على خصومها ، وتسفه آراءهم وتبطل حججهم ، وتحدث الثغرات فى صفوفهم .

كان حسان يتولى فى الدولة الإسلامية الناشئة عملا جليلا لا يقل خطره عن قيادة الجيوش المحاربة ، وقد رأينا فى التاريخ الحديث وفى النهضات القومية والحروب الأخيرة أن الدعاية الناجحة هى جيوش الطليعة الفاتحة ، وأن وزراءها يختارون اختياراً ، وتعلق عليهم الآمال الكبار .

ولا تحتاج الدعاية إلى مقدرة حربية ، ولا إلى قوة بدنية ، وحسب وزير الدعاية أن يتقن عمله ، ويحذق فنه ، ويحسن الحيلة ، وليس بضاره بعد هذا أن يكون أعرج أو أعمى أو ضعيفاً هيابة . بل لعل شعوره بالعجز عن البطش بعدوه يحفزه إلى الإبعاد فى التشفى منه ، ويكون أدعى لسلاطة لسانه ، والإيغال فى هجائه . وهبْ حسان قد حارب بسيفه فما الذى كان يرجى من ورائه ، ويتوقع من بلائه ! إن جهده — مهما يكن — لن يجاوز جهد فرد ينال به أفراداً . ولكنه بشعره وهجائه ، ولسانه ومضائه ، كان قوة جارفة ، وكان أمة زاحفة ، أصاب

---

(١) الأغانى ٢/١٥٩ وما بعدها .

(٢) لزوم ما لا يلزم ٢/٣٢ . والكمى : الشجاع والمغطى بالسلاح . المخالس : السالب عدوه .

بسلاحه البتار طوائف ومزق أقواماً .

انصرف الأحزاب عن الخندق ، ونهض حسان لأداء رسالته ، يجيب ابن الزبعرى بإحدى قصائده[١] ، مصوراً أحوال المسلمين النفسية ، من الضيق والشكوى إلى الله من ظالمين ألّبوا أهل القرى والبوادى ، وأمّوا الرسول بغزوهم ، وضمنها بعض ما نزل من القرآن فى هذه الغزوة ، ويعيرهم ما أصابهم ببدر ، ويفخر بمقتل عمرو بن عبدوُد[٢] ، ويهجو عكرمة بن أبى جهل لفراره عنه حين قتل[٣] ، ويذكر مصاب فهر فيه ، وكيف ولت جموعهم متفرقة مهزومة ، ويتشفى باستعادة ما أصابهم ببدر ، وينذرهم مصيبة أخرى وشيكاً[٤] . وسار رسول الله بأصحابه يوم ولت الأحزاب إلى بنى قريظة ، يؤدبهم على ما كان من غدرهم بعهده ، وانضمامهم إلى الأحزاب فى حربه ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدوا وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، ثم قتل رجالهم ، وقسمت أموالهم ، وسبيت ذراريهم ونساؤهم ، فلما انقضى شأن بنى قريظة انفجر بسعد بن معاذ جرحه فمات شهيداً ، فقال حسان يرثيه[٥] :

لقد سَجَمتْ من دمعِ عينِىَ عَبْرةٌ وحَقَّ لعينِى أن تَفِيض على سعد

وقال يبكيه ويبكى جماعة من شهداء الصحابة ، ويذكر جهاد قومه فى سبيل الله[٦] :

ألا يا لَقَومى هل لما حُمَّ دافعُ وهل ما مضى من صالح العَيْشِ راجعُ

ثم راح يشهر بما أصاب بنى قريظة ، ويهجوهم وينذر قريشاً مثله[٧] .

فنهض له أبو سفيان بن الحارث ، وجبل بن جوّال الثعلبى يجيبانه ، وينقضان عليه قوله[٨] .

كان الأوس والخزرج يتصاولان إزاء رسول الله تصاول الفحلين ، لا تصنع

---

(١) الديوان رقم ١٤ . ابن هشام : السيرة ٣/٢٦٩ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٢٨١ الديوان ٩٥ .
(٣) ابن هشام : السيرة ٣/٢٣٧ .
(٤) الديوان رقم ٩٠ .
(٥) ابن هشام : السيرة ٣/٢٨٢ .
(٦) انظر السيرة : ٣/٢٨٣ . الديوان رقم ١٣٢ .
(٧) ابن هشام : السيرة ٣/٢٨٤ ، ٢٨٥ . الديوان ٩٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨
(٨) ابن هشام : السيرة ٣/٢٨٥ .

الأوس شيئاً فيه عن الرسول غَناء إلا قالت الخزرج : والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الإسلام . فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت الأوس مثل ذلك ، فلما قتلت الأوس كعب ابن الأشرف فى عداوته للرسول قبل أحد قالت الخزرج : والله لا تذهبون بها فضلا علينا أبدًا ، وتذاكروا مَنْ رجلٌ لرسول الله فى العداوة كابن الأشرف ، فذكروا سلاّم بن أبى الحُقيق بخيبر ، وكان ممن حزب الأحزاب على رسول الله ، واستأذنوه فى قتله ، فأذن لهم فقتلوه[١] . فقال حسان يذكر فى بهجة وسرور مقتلهما[٢] :

لله درُّ عصابة لاقَيْتَهُمْ يابن الحُقَيْق وأنت يابن الأشرف

اطمأن قلب الرسول ، وعلا شأن الإسلام بهزيمة الأحزاب ، وعرف أن المشركين لن يحاولوا بعد تلك الهزيمة النكراء غزو المسلمين ، وأن غل الصدر لا بد أن يدفعهم إلى الهجاء والنيل من أعراض المؤمنين ؛ فقال لأصحابه : إن المشركين لن يغزوكم بعد اليوم ولكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم أذى كثيراً ويهجونكم ، فمن يحمى أعراض المسلمين ؟ فقام عبد الله بن رَوَاحة فقال : أنا يا رسول الله ، فقال : إنك لحسن الشعر ، ثم قام كعب فقال : أنا يا رسول الله ، فقال : وإنك لحسن الشعر ، فقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله ، فقال : نعم . اهجهم أنت فإنك سيعينك عليهم روح القدس [٣] .

وأغار عيينة بن حصن الفزارى على لقاح[٤] لرسول الله بالغابة[٥] يرعاها رجل وامرأة له فقتلوا الرجل ، واحتملوا المرأة فى اللقاح . وخرج الفرسان فى طلب القوم حتى تلاحقوا ، وكانوا ثمانية فيهم المقداد بن عمرو ، وقد أمّر عليهم رسول الله سعد ابن زيد فاستنقذوا بعض اللقاح ، وأقبل الرسول بمن معه حتى نزل بالجبل من ذى قَرَدَ ، وأقام عليه يوماً وليلة ، ثم رجع قافلا إلى المدينة[٦] ، فقال حسان فى ذلك

---

(١) السيرة ٣/٢٨٦ .
(٢) ابن هشام السيرة ٣/٢٨٨ . الديوان رقم ٩٧
(٣) الأغانى : ١٥/٢٨ ، ٤ ، ٧/ .
(٤) اللقاح : الإبل الحوامل ذوات الألبان .
(٥) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة .
(٦) ابن هشام : السيرة ٣/٢٩٣ وما بعدها .

مشيراً إلى غزوة بنى لِحيان التى وقعت قبل هذه بليال ، غزاها الرسول انتقاماً الخُبَيب ابن عدى وإخوانه أصحاب الرَّجيع [١] :

لولا الذى لاقتْ وَمسَّ نُسورَها[٢] بجنوب سَايَةَ[٣] أَمسِ فى التَّقْوَاد
لَلَقِينَكم يَحْمِلْنَ كلَّ مُدَجَّجٍ حامِى الحقيقةِ ماجدِ الأَجْداد
ولَسَرَّ أَولادَ اللَّقيطةِ أَننا سِلْمٌ غَداةَ فوارِسِ المِقْدادِ

ومضى يهدد غطفان ويهجوها ، ويذكر ما صنع الثمانية المسلمون بذلك الجحفل من المشركين ، فلما سمع سعد بن زيد قول حسان « فوارس المقداد » غضب ، وحلف ألا يكلمه أبداً ، وقال : انطلق إلى خيلى وفوارسى فجعلها للمقداد ، فاعتذر إليه حسان ، وقال : والله ما ذاك أردت ، ولكن الروى وافق اسم المقداد ، وقال أبياتاً يترضى بها سعداً :

إذا أَرَدْتَ اللَّيِّنَ الأَشَدَّا من الرجال فعليك سعدَا
سعدُ بن زيد فاتَّخِذْهُ جُندَا ليس بخَوَّارٍ يُهَدُّ هَـدَّا
ليس يرى من ضرب كبشٍ بُدَّا

فلم يقبل منه سعد ، ولم يغن عنه شيئاً [٤]

وإنما بلغ الغضب من سعد هذا المبلغ لأنه كان يعلم أن شعر حسان يسرى فى الناس سريان البرق ، وأن ذلك الشعر كان سجلا ، وكان تاريخاً للإسلام .

وقال يتهكم بعُيَيْنَةَ بن حِصْن ويهجوه ، ويمدح الرسول [٥] :

أَظَنَّ عُيَيْنَةُ إذ جاءَهـا بأَنْ سوف يَهْدِمُ فيها قصورَا

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٢٩٨ الديوان رقم ١٣٧ .
(٢) النسر : لحمة فى باطن الحافر أو ما ارتفع فى باطن حافر الفرس من أعلاه .
(٣) ساية : بلد بالحجاز بين أمج وعسفان نزل بها الرسول فى غزوة بنى لحيان .
(٤) ابن هشام : السيرة ٣/٢٩٩ — الديوان رقم ١٦٩ .
(٥) ابن هشام : السيرة ٣/٢٩٩ — الديوان رقم ٦٣ .

يوم جَهْجاه

وسمع رسول الله أن بنى المُصْطَلِق يجمعون له، وقائدهم الحارث بن أبى ضِرار، فخرج إليهم[١] حتى لقيهم على ماء لهم يقال له: المُرَيْسيع[٢]، فهزم بنو المصطلق، وقتل منهم من قتل، وقسمت يومئذ أبناؤهم ونساؤهم وأموالهم، وكان فيمن أصيب من السبايا جُوَيْرِيَة بنت الحارث بن أبى ضِرار فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبينما رسول الله على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غِفار اسمه جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم على الماء جهجاه وسنان ابن وَبَر الجُهَنى حليف بنى عوف بن الخزرج فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أُبَيّ بن سلول، وقال: أَوَقد فعلوها! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أَعُدُّنا وجلابيب قريش[٣] إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ومشى الخبر إلى رسول الله وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر به عباد بن بشر يا رسول الله فليقتله، فقال رسول الله: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه! لا، ولكن أَذِّنْ بالرحيل — وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها —، فارتحل بالناس، ولقيه أُسَيد ابن حُضَيْر، فلما عرف ما كان من عبد الله بن أُبَيّ قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وسار الرسول بالناس يومهم وليلتهم وصدر يوم آخر حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بهم، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً، وإنما فعل ذلك ليشغلهم عما كان بالأمس[٤].

---

(١) كانت فى شوال قيل من السنة السادسة، وقيل من السنة الخامسة.

(٢) من ناحية قديد إلى الساحل.

(٣) جلابيب قريش لقب لقب به المشركون من كان أسلم من المهاجرين لأنهم كانوا يلتحفون بالجلابيب. وهى الأزر الغلاظ.

(٤) ابن هشام: السيرة ٣/ ٣٠٢ وما بعدها.

حديث الإفك

وفى طريق العودة إلى المدينة — وكانت السيدة عائشة مع الرسول فى هذه الغزوة — وقع أمر تحدث فيه الناس ، فكان حديث الإفك[١] ، ونستمع إلى السيدة عائشة تقص ذلك القصص[٢] ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيّهن خرج سهمها خرج بها معه ، فلما كانت غزوة بنى المُصْطَلِق أقرع بين نسائه كما كان يصنع ، فخرج سهمى عليهن معه ، فخرج بى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَق[٣] ، لم يَهِجْهُنَّ[٤] اللحم فيثقلن ، وكنت إذا رُحل لى بعيرى جلست فى هوْدجى ، ثم يأتى القوم الذين يرحلون لى ويحملونى ، فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله ، ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به ، فلما فرغ رسول الله من سفره ذلك وجّه قافلا ، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلا ، فبات به بعض الليل ، ثم أذّن فى الناس بالرحيل فارتحل الناس ، وخرجت لبعض حاجتى وفى عنقى عقد لى فيه جَزْعُ ظَفَارِ ، فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاءالقوم خلافى الذين كانوا يرحلون لى البعير وقد فرغوا من رحلته ، فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه فشدوه على البعير ، ولم يشكّوا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب قد انطلق الناس . فتلففت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلىّ ، فوالله إنى لمضطجعة إذ مر بى صَفوان ابن المُعَطَّل السُّلَمِىّ ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته[٥] ، فلم يبت

---

(١) الإفك : أبلغ الكذب والبهتان لا تشعر به حتى يفجأك .

(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٠ وما بعدها .

(٣) العلق : جمع علقة وهى ما يتبلغ به من الطعام إلى وقت الغداء .

(٤) يهجهن اللحم : يملؤهن كالورم .

(٥) كان صفوان على ساقة العسكر يلتقط ما يسقط من متاعهم .

مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف علىّ — وقد كان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب — فلما رآنى قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأنا متلففة فى ثيابى ، قال : ما خلفك يرحمك الله ؟ فما كلمته ، ثم قرب البعير ، فقال : اركبى ، واستأخر عنى فركبت ، وأخذ برأس البعير ، فانطلق سريعاً يطلب الناس ، فوا الله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ، ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بى ، فقال أهل الإفك ما قالوا : فارْتَعَجَ العسكر [١] ، ووالله ما أعلم بشىء من ذلك . ثم قالت [٢] : وقلت لأمى : يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؛ قالت : أىْ بنية . خفضى عليك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثَّرن وكثر الناس عليها . قالت : وقد قام رسول الله فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى .

حسان وحديث الإفك

قالت : وكان كِبْرُ [٣] ذلك عند عبد الله بن أبىّ بن سلول فى رجال من الخزرج ، مع الذى قال مِسْطَح بن أُثَاثَة ، وحَمْنة بنت جحش ، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصينى [٤] فى المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها ، فلم تقل إلا خيراً . وأما حَمْنَة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت ، تضادنى لأختها ، فشقيت بذلك .

---

(١) ارتعج : : تحرك واضطرب .

(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٢ .

(٣) الكبر بالضم والكسر . الإثم ، ومعظم الشىء .

(٤) تناصينى : تساوينى .

وقالت فى موضع آخر [١] : ثم سرّى عن رسول الله فقال : أبشرى يا عائشة . فقد أنزل الله براءتك ، ثم خرج إلى الناس وخطبهم ، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن فى ذلك، ثم أمر بمِسْطَح بن أثاثة وحسان بن ثابت ،وحَمْنَة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حَدَّهم .

قالت : فنزل القرآن بذكر من قال من أهل الفاحشة ما قال أهل الإفك ،

فقال تعالى: « إن الذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم ، لا تحسَبوه شرًّا لكم بل هو خيرٌ لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتَسَبَ من الإثم ، والذى تولَّى كِبْرَه منهم له عذابٌ عظيم » . (وذلك حسان بن ثابت وأصحابه الذين قالوا ما قالوا) . قال ابن هشام ويقال : وذلك عبد الله بن أبىّ وأصحابه . قال ابن هشام : « والذى تولى كِبْرَه عبد الله بن أبىّ ، وقد ذكر ذلك ابن إسحق فى هذا الحديث قبل هذا» [٢] .

وفى كتب الحديث كلام كثير عن الإفك ، والعصبة الآفكة ، وهى متفقة على أن حسان بن ثابت خاض فيه مع الخائضين [٣] ، وذكر بعضها أنه جلد حد القذف [٤] ، وصرح بعضها بأن الذى تولى كبره عبد الله بن أبىّ بن سلول [٥] ، وأشار بعض إلى أن حسان قد تولى كبره أيضاً مع ابن أبى [٦] .

أما كتب التفسير ، وهى تعرض للمسألة فى تفسير قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم » من سورة النور ، فهى متفقة كذلك على اشتراك حسان فى حديث الإفك [٧] ، وعلى أنه جلد فيه [٨] ، وعلى أن الذى تولى كبره

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٥

(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٦ .

(٣) البخارى ك ٦٤ ب ٣٤ ، مسلم ك ٤٩ ح ٥٧ ، سنن أبى داود ك ٣٧ ب ٨٧ ، سنن الترمذى ك ٤٤ سورة ٢٤ ح ٤ ، مسند ابن حنبل ٦/٦٠ و ١٩٤ ، القسطلانى شرح صحيح البخارى ٧/٣٠٥ .

(٤) سنن أبى داود ك ٣٧ ب ٨٧ ، القسطلانى ٧/٣٠٥ .

(٥) البخارى ك ٦٤ ب ٣٤ ، سنن الترمذى ك ٤٤ سورة ٢٤ و ج ٤ .

(٦) البخارى ك ٦٤ ب ٣٤ .

(٧) الكشاف ٢/٨٥ . الفخر الرازى ٦/٢٧٨ أبو السعود هامش الفخر ٧/١٨٥ . البيضاوى هامش الخطيب الشربينى ٣/٣٣٣ . الخطيب الشربينى ٢/٤٩٣ . الخازن ٣/٣٢٠ النسفى هامش الخازن ٣/٣١٨ .

(٨) الفخر الرازى ٦/٢٧٨ أبو السعود ٧/١٨٥ البيضاوى هامش الخطيب الشربينى ٣/٣٣٤ الخطيب الشربينى ٢/٤٩٤ الخازن ٣/٣٢١ النسفى هامش الخازن ٣/٣٢٢ الكشاف ٢/٨٧ .

عبد الله بن أبي ، وشايعه حسان وآخرون فيه [١] .

فمن التعسف والمكابرة بعد هذا أن نحاول إفلات حسان من هذه التهمة ، ولكن فلننظر فى الأسباب التى حملت ذلك المجاهد الذى ندب لحماية أعراض المسلمين على أن يخوض هو فى عرض رسول رب العالمين ، ويطعن بسلاحه وليه ونبيه الأمين ، ولنكشف عن سر هذا الرجل ، ولنفتش من حوله . وسيجد من تتبع معنا ما مضى من سيرة حسان أنه كان طيب القلب ، فيه سذاجة لا يحسن معها التأتى فى الحديث إلى من يحب ، وأنه كان سريع الغضب ، يملكه الغضب فيندفع فى ثهور ، لا يفكر فى العواقب ولا يباليها ، طلق زوجه عمرة على حبه لها وحبها له فى ساعة غضب ، وهجا زوجه الأخرى شعثاء هجاءً فاحشاً تأباه حمية الأزواج فى ثورة غضب ، وشرى خمر خمار جملة فسكبها على الأرض حتى جرت تحت الأعشى فى نزوة غضب ؛ ورفض حكومة النابغة قاضى الشعراء فى سوق عكاظ حين غضب ، قائلا : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك . وليس أسهل من استثارة مثل هذا الرجل الطيب ، وهو ضالة الماكرين الخبثاء ، يطلبونه ، فيلقون فى أذنه الكلام الحار المسموم ، فلا يلبث أن يستشيط ويندفع ، ويكون أفعل منهم فيما يرومون من الكيد والأذى من حيث لا يدرى .

وليس أحب إلى حسان من رسول الله ، وليس عرض بأعز عليه من عرضه ، وحين يثار الغبار حول هذا العرض الطاهر العزيز ، فللأولياء عنده طريقان : طريق الحكماء المتثبتين ، حين يبرئون ، ويتذممون ، ويتقون القذى . ويدعون الناس أن يفيئوا إلى الرشد ، إبقاء على الحرمة ، ورعاية لحق الصحبة ، وطريق السذج الغافلين ، حين لا يتلبثون ، ولا يفكرون ، ويهطعون إلى الداعى ، يسمعون منه ما يسوءهم ، فيستكثرون ما يسمعون ، من المقول فيهم لا من القائلين ، ويعجلهم الغضب عن النظر ، وتدفعهم سلامة الطوية إلى الثورة على المفترى عليه لا على المفترين ، فيقولون فى شأنه ما يقولون ، ويرددون ما يسمعون ، حمية لصاحبهم ، وضنًّا به على التنقص ، وغضباً على من كان باباً أتاه الشر من جانبه .

---

(١) الفخر الرازى ٦/٢٧٦ .

وكذلك كان حسان من حديث الإفك، لم يُدَبِّرْ أمره مع المدبرين ، فقد كان أسلم صدراً وأدنى وفاء للرسول من أن يكون كذلك ، وكان أقل مكراً ، وأضعف حيلة من أن يحوك خيوط مؤامرة كهذه ، من غير أسباب داعية ، ولا شبهة سابقة ، وإنما استغله أهل النفاق والشر ، فانزلق حسن النية إلى الحديث فيما تحدثوا به ؛ ناقماً من السيدة عائشة أن تكون سبباً لذلك الجرح الدامى فى قلب الرسول العظيم ، غاضباً لكرامة النبى الكريم .

وحسان لا يلام حين تجول بنفسه الظنون حول ما قيل عن عائشة ، فإن الرسول نفسه قد وضع هذا الأمر موضع البحث والتحقيق ، فسأل أسامة بن زيد وعلى ابن أبى طالب رأيهما فيه ، فقال أسامة : أهلك يا رسول الله ، ولا تعلم منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل . أما على فقال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فإنها ستصدقك ، ولما حضرت الجارية قام إليها فضربها ضرباً شديداً ، وهو يقول : اصدقى رسول الله . وراح الرسول يسأل السيدة عائشة نفسها ، قائلا : يا عائشة : إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقى الله ، وإن كنت قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده[١] .

وإنما يلام حسان على أن يفصح عن الفاحشة ، وأن يدير بالقول فيها لسانه ، وليس أدل على أن حسان قد انزلق فى الإفك حسن النية سليم الطوية ، من رجوعه عنه حين نزل القرآن ببراءة عائشة ، ومن أنه جلد فيه فما سخط ولا برم ، بل تقبل الجَلْد قبول المؤمنين راضياً ، لأنه آمن ببراءة عائشة وعرف أن ذلك حد الله لابد أن ينفذ فيه ، وأنه كانت منه خطيئة يجب عليه فوق ذلك أن يعتذر منها ، فنهض بالاعتذار إلى السيدة عائشة عما بدر منه قائلا[٢] :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحوم الغَوافِلِ

وقد حاول فيها أن يتنصل مما رمى به من الاشتراك فى الإفك ، بقوله:

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٣ و ٣١٤ .

(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٩ الديوان رقم ١٤٦ .

فإنْ كنتُ قد قُلتُ الذى قد زَعَمْتُمُ فلا رَفَعَتْ سَوْطى إلىّ أناملى
فإنَّ الذى قد قيل ليس بِلائِطٍ[١] بِكِ الدهرَ بل سَعْىُ امرئٍ بِىَ ماحِلِ[٢]
وكيفَ وَوُدِّى ما حَبِيتُ ونُصْرَتِى لآلِ رسولِ اللهِ زَيْنِ المَحافِلِ

ولعل حسان إنما يتنصل بهذا من توليه كبر ذلك الإثم ، وإلا فكيف يتبرأ من أمر ثبت اشتراكه فيه بإقامة الحد عليه ، إلا أن تكون بضاعة شاعر من الادعاء والمغالطة ومخاتلة السامعين . وفى هذا يقول ابن رشيق القيروانى[٣] : اعتذر حسان ابن ثابت من قوله فى الإفك ، بقوله لعائشة رضى الله تعالى عنها فى أبيات مدحها بها (ثم ذكر الأبيات السابقة) فاعتذر كما تراه مغالطاً فى شىء نفذ فيه حكم الرسول بالحدّ ، وزعم أن ذلك قول امرئ ما حل أى مكايد ، فلم يعاقب لما يرون من استخفاف كذب الشاعر ، وأنه يحتج به ولا يحتج عليه .

وقال قائل من المسلمين فى ضرب حسان وصاحبيه فى فريتهم على عائشة[٤] :

لقد ذاق حسانُ الذى كان أهلَهُ وحَمْنَةُ إذْ قالوا هُجَيْرًا ومِسْطَحُ[٥]
نَعاطَوْا برَجْمِ[٦] الغَيْبِ زوجَ نبيِّهِمْ وسَخْطَةَ ذى العرش الكريم فأُتْرِحُوا[٧]

حسان وحادث جهجاه

وقع حادث جهجاه بعد فراغ الرسول من أمر بنى المصْطَلِق وقبل عوده من غزوهم على ما سبق ، وكان حسان بالمدينة فجاءه نبؤه ونبأ الإفك مجتمعين ، وكان صاحب الباع الطويل فى تهييج الفتنة حول الأمرين عبد الله بن أبىّ بن سلول ، ووجد من حادث جهجاه نواة لاستثارة حسان على المهاجرين عامة ، ليستغل ثورته فى النقمة على صَفْوان بن المعطّل فيما ذكروه عنه مع السيدة عائشة فى إفكهم ،

---

(١) لائط : لاحق .
(٢) ماحل : مكايد واش بالنميمة .
(٣) العمدة ١ / ٨ .
(٤) ابن هشام : السيرة ٣ / ٣٢١ .
(٥) الهجير : الهجر والقول القبيح الفاحش .
(٦) الرجم : الظن .
(٧) أترحوا : أحزنوا . والترح : الحزن .

وراح حسان إلى أطُمِه فارع ، وكان يجلس إليه مع أصحاب له على بساط يضعه لهم ، فرأى كثرة من يأتى إلى النبى صلى الله عليه وسلم من العرب من مضر فيسلمون ، فاعتملت هذه الأسباب مجتمعة فى نفسه ، فقال فى ذلك معرّضاً بابن المعطّل[١] :

أمسى الجَلابِيبُ[٢] قدعَزُّوا وقد كَثُروا وابنُ الفُرَيْعَةِ أمْسى بَيْضَةَ[٣] البَلَدِ

فاعترض صفوان حسان فضربه بالسيف قائلاً :

تَلَقَّ ذُبَابَ السيفِ عنى فإننى غلامٌ إذا هُوجيتُ لستُ بشاعر

فدعا الرسول حسان وصفوان ، فقال صفوان : يا رسول الله ، آذانى وهجانى ، فاحتملنى الغضب فضربته ، فقال رسول الله لحسان : أتَشَوَّهتَ[٤] على قومى أنْ هداهم الله للإسلام ! ثم قال : أحسن يا حسان فى الذى أصابك . قال : هى لك يا رسول الله . فأعطاه الرسول بِيرَحاء ، وهى قصر بنى حُدَيْلَة بالمدينة ، وكانت مالاً لأبى طلحة بن سَهْل تصدق بها إلى رسول الله ، فأعطاها حسان فى ضربته ، وأعطاه سِيرين أخت مارية القبطية ، فولدت له ابنه عبد الرحمن[٥] . وقد هُجِى حسان بما فعل به ابن المعطل ، فقال له قائل[٦] :

وإنَّ ابنَ المُعَطَّلِ من سُلَيْمٍ أذَلَ قِيادَ رأسِكَ بالخِطَامِ

تعقيب على رواية للأغانى

وقد روى أبو الفرج[٧] أن حسان حين ضرب قال لأصحابه : احملونى إلى رسول الله أترضاه ، ففعلوا ، فأعرض عنه الرسول مرة من بعد مرة ، ثم حملوه إليه أخرى فقال يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، احفظ قولى :

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٧ الأغانى ٤/١١ و ١٢ الديوان رقم ١٤٠ .
(٢) الجلابيب : يقصد المهاجرين سموا بما كانوا يلبسونه .
(٣) بيضة البلد : تكون للفخر بالعزة ، وللذم بالتفرد والذلة وهو المقصود هنا .
(٤) تشوه عليهم : قبح من فعلهم .
(٥) ابن هشام : السيرة ٣/٣١٨ و ٣١٩ – الأغانى ٤/١١ و ١٢ .
(٦) الأغانى ٤/١٢ .
(٧) الأغانى ٤/١١ .

هَجَوْتَ محمدًا فأَجَبْتُ عنه وعندَ اللهِ فى ذاكَ الجزاءُ

فإنَّ أَبى ووالدَهُ وعِرْضِى لعِرْضِ محمدٍ منكم وقاءُ

فرضى عنه ؛ ووهب له سيرين .

وهذا قول لا يتسق مع المنطق والتاريخ ، إذ كيف يستشفع حسان بشعر لم يكن قد قاله بعد ، وهذه الحادثة وقعت فى السنة الخامسة أو السادسة ، وهذا الشعر من قصيدة قيلت فى الفتح فى السنة الثامنة !

وقال ابن هشام[١] : حدثنى أبو عبيدة أن امرأة مدحت بنت حسان بن ثابت عندعائشة فقالت :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بِرِيبةٍ وتُصْبِح غَرْثَى من لحوم الغَوافِل

فقالت عائشة : لكن أبوها[٢] .

وفى الأغانى[٣] أن حسان هو الذى كان يرثى ابنته عند عائشة بما تقدم فقالت : لكن أنت لست كذلك .

وذكر ابن عساكر أن حسان دخل على عائشة فأنشدها :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتصبح غَرْثَى من لحوم الغَوافِل

فقالت له : لكنك أنت لست كذلك[٤] .

لا شك فى أن الرسول ساءه من حسان إفصاحه بالفاحشة ، وتشوهه على المهاجرين أن أسلموا ، ولكنه غفر له ، لنقاء طويته ، وسريع توبته ، واعتذاره للسيدة عائشة ، وانصرافه عن التعرض للمهاجرين ، وسابق يده وحسن بلائه فى الدفاع عن الدين ، كما غفرت له عائشة ونهت عن سبه ، ذاكرة له دفاعه عن الرسول[٥] .

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٢٢٠ .

(٢) قال أبو ذر . روى أيوها وأباها ، فمن قال أبوها فمعناه : لكن أبوها ليس كذلك ، ومن قال أباها ، فمعناه : أن حسان أبى هذه الصفة : ولكن مشددة .

(٣) ١/١٠ .

(٤) تاريخ دمشق ٤/١٢٧ .

(٥) البخارى ك ٦٤ ب ٣٤ و ك ٦١ ب ١٦ – مسلم ك ٤٩ ح ٥٧ ، دلائل النبوة حـ ٥ (حديث الإفك) الاستيعاب ١/١٢٩ ، أسد الغابة ص ٦ .

حسان يتابع جهاده

ثم مضى حسان على سنته ، يتتبع أحداث الإسلام بشعره ، ويؤرخ لها ، ولما فتح الرسول حصون خيبر ، وأخذ أموالهم فى السنة السابعة قال حسان يهجو أهلها [١] :

بئْسَما قَاتَلَتْ خَيَابِرُ عما جَمَّعَتْ مِن مَزارعٍ ونَخِيـــلِ

وقال فى الاعتذار عن أيمن بن أم أيمن مولاة رسول الله ، وقد تخلف عن خيبر [٢] :

على حِين أَنْ قالت لأَيمنَ أُمُّهُ جَبُنْتَ ولم تَشْهَدْ فوارسَ خَيبَرِ

وخرج جيش المسلمين فى ثلاثة آلاف إلى مؤتة بالشام لقتال الروم فى السنة التى تلتها ، وأمّر عليهم الرسول زيدَ بن حارثة ، فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة ، فقتلوا هناك جميعاً ، فبكاهم حسان أشد البكاء فى شعر له [٣] .

وكان بنو بكر من كنانة دخلوا عام الحُدَيْبية فى عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة فى عقد النبى وعهده ، فَعَدَتْ بنو بكر تظاهرها قريش على خزاعة ، فأقبل وفدها على رسول الله يخبره الخبر ، ورأى الرسول أن يتهيأ لفتح مكة ، فقام حسان يذكر مصاب خزاعة ويحرض الناس ، ويهجو قريشاً قائلا [٤] :

عَنَانِى ولم أَشْهد بَبَطْحاءِ مكَّةٍ رجال بنى كَعْبٍ تُحَزُّ رقابُها

والتفت إلى بنى بكر يهجوهم بقوله [٥] :

لحا اللهُ قوماً لم تَدَعْ من سراتِهِمْ لهم أحدًا يَنْدُوهُم غيرَ ناقبِ [٦]

---

(١) ابن هشام : السيرة ٣/٣٦١ – الديوان رقم ٢٠١ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٣/٣٦٢ – الديوان رقم ١٤٤ .
(٣) ابن هشام : السيرة ٤/٢٦ و ٢٨ و ٢٩ – الديوان الأرقام ٢١ و ١٤٨ و ١٦٥ .
(٤) ابن هشام : السيرة ٤/٤٠ . الديوان رقم ١٤٩ .
(٥) ابن هشام : السيرة ٤/٣٦ .
(٦) يندوهم : يجمعهم بالنادى ، ناقب . رجل منهم (اللسان) .

وقال مخرج الرسول إلى الفتح قصيدته المشهورة[١] :

عَفَتْ ذاتُ الأَصابعِ فالجِوَاءُ إلى عَذْراءَ منزلُها خَلاَءُ [٢]

يهدد قريشاً ويتوعدها بالغزو ، متفائلا بما سيكون فى الفتح ، مادحاً الرسول ، هاجياً أبا سفيان بن الحارث ، فخوراً بقومه وبنفسه فخراً لا يزاحم جلال الرسالة والفتح .

ولكننا نجد حسان فى هذه القصيدة ، قد خالف منهجه الإسلامى ، فقد استهلها بذكر مواضع جاهلية الذكريات ، ثم قال فى الخمر قولا جميلا ، فما الذى نبه فى حسان الحنين إلى تلك الديار الغسانية التى نسيها أو كاد ينساها ، وكيف يتغنى بها يوم الفتح الأعظم والنصر المبين ، وما له وللخمر وقد تركها وتركته ، فماذاقها وما ذكرها منذ أسلم . قال مصعب بن الزبير : هذه القصيدة قال حسان صدرها فى الجاهلية وآخرها فى الإسلام . وهجم حسان على فتية من قومه يشربون الخمر ، فعيرهم فى ذلك ، فقالوا يا أبا الوليد : ما أخذنا هذه إلا منك ، وإنا لنهم بتركها ثم يثبطنا عن ذلك قولك :

ونَشْرَبُها فَتَتْرُكُنا مُلوكاً وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنَا اللقــاءُ

فقال : هذا شىء قلته فى الجاهلية ، والله ما شربتها منذ أسلمت [٣] .

فهذا القول يجلو تلك الشبهة العارضة ، ويجعل من الممكن افتراض أن حسان

---

(١) ابن هشام : السيرة ٤/ ٦٣ الديوان رقم ١ دلائل النبوة حـ ٦ (باب نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران) ومما يدل على أن هذه القصيدة قيلت قبل الفتح مافيها من هجاء أبى سفيان بن الحارث ، وقد أسلم والرسول فى طريقه بين مكة والمدينة قبل أن يتم الفتح ، فلو قيلت بعد الفتح لما هجاه فيها لأنه كان قد أسلم عندئذ ، وأنه ليس فيها وصف لما حدث فى الفتح على عادة حسان حين يقص أنباء الغزوات ، بل فيها تهديد بالغزو وتفاؤل بالنصر ، ومما كان من سؤال الرسول قبل أن يدخل مكة عما قاله حسان فى هذه القصيدة من كيفية دخول المسلمين مكة ، ولأن حسان لم يرد له ذكر — كعادته — بين السائرين إلى مكة ، وأخيراً لما نص عليه البيهقى فى دلائل النبوة من قوله : « وقال حسان بن ثابت مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة وسيأتى ذكر ذلك » .

(٢) ذات الأصابع والجواء موضعان بالشام ، وبالجواء كان منزل الحارث بن أبى شمر الغسانى ، عذراء . قرية قريبة من دمشق .

(٣) الاستيعاب ١/ ١٢٩ .

قال صدر هذه القصيدة فى الجاهلية ، ثم رأى وهو يتهيأ للقول فى الفتح أن يبنى عليه قوله :

عَدِمْنَا خَيْلَنا إنْ لم تَرَوْها تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كَدَاءُ[١]

أو أن الرواة هم الذين أضافوا ما قال فى الفتح لما قاله فى الجاهلية فصارا قصيدة واحدة .

وهكذا طلق حسان للإسلام الخمر وذِكْرَها ، وطلَّق معها حياة المجون واللهو العابث ، وإن أبت عليه طبيعته إلا الاستمتاع بلهو برىء ، لا يأباه الدين ، ولا ينكره الرسول ، فكان يقعد فى أطُمِه مقاعد للسمع ، تعزف له الجوارى ، وتغنيه القيان ، والصحابة معه يسمعون ويطربون .

« روى ابن عباس : خرج النبى وقد رش حسان فناء أطمه ، والصحابة سِماطين ، وبينهم جارية لحسان ، ومعها مزهر لها تغنيهم ، وهى تقول فى غنائها :

هــل علىَّ وَيْحَكُمُ إن لَهَوْتُ من حَرَجِ ؟

فتبسم رسول الله وقال : لا حرج إن شاء الله »[٢] .

ثم سار رسول الله لفتح مكة فى عشرة آلاف من المسلمين ، وأقبل أبو سفيان ابن الحارث على الرسول بين مكة والمدينة فأسلم واعتذر عما كان منه[٣] .

فلما انتهى رسول الله إلى طُوَى وقف على راحلته مُعْتَجِراً[٤] بشُقَّةِ بُرْدِ حِبَرَةٍ[٥] حمراء ، وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عُثْنُونَه ليكاد يمس واسطة الرحل ، وفرّق جيشه من ذى طُوَى ، وقال : كيف قال حسان . . فقال رجل من أصحابه . . قال :

عَدِمنا خيلنا إن لم تَرَوْها تثير النقعَ موعدُها كَدَاء

---

(١) النقع : الغبار . كداء : كسحاب ثنية بأعلى مكة .
(٢) تاريخ دمشق ٤/١٣٢ .
(٣) ابن هشام ٤/٤٣ .
(٤) معتجر : معمم بغير ذؤابة .
(٥) الحبرة : ضرب من ثياب اليمن .

فأمر سعدَ بن عبادة أن يدخل الخيل من كداء ، تصديقاً لفأل حسان .

ولما رأى النساء يلطمن الخيل بالخمر ابتسم إلى أبى بكر . وقد ذكر بذلك قول شاعره حسان[١] :

تَظَلُّ جِيادُنا مُتَمَطِّرات تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُر النساءُ[٢]

وفر عبد الله بن الزبعرى إلى نَجْران ، فرماه حسان ببيت واحد ما زاد عليه :

لا تَعْدَ مَنْ رجلاً أَحَلَّكَ بُغْضُهُ نَجْرانَ فى عيشٍ أَحَذَّ لئيمِ[٣]

فلما بلغ ذلك ابن الزبعرى خرج إلى رسول الله صلى الله عليه فأسلم[٤].

وكان يوم حنين بعد فتح مكة ، وقد أحنق هوازن ما فتح الله على الرسول من مكة ، فجمعوا له ثقيفاً ونصراً وجشم وسعد بن بكر ، وسار الرسول إليهم ، وفجأ المشركون المسلمين فى عماية الصبح فشدوا عليهم من الشِّعاب والأحناء والمضايق ، فانكشف المسلمون راجعين ، وثبت مع الرسول جماعة . حتى عاد إليه من تفرق عنه ، وأيدهم الله بنصر من عنده .

وعندما انهزم المسلمون أول الأمر ، تكلم رجال من جفاة أهل مكة ، بما فى نفوسهم من الضغن ، وصرخ كَلَدة بن الحنبل — أخو صفوان بن أمية لأمه — ألا بطل السحر اليوم ، فقال حسان يهجوه :

رأَيتُ سَوَادًا من بَعيدٍ فراعنى أَبو حَنْبَلٍ يَنْزُو على أُمِّ حَنْبَلِ
كأَنَّ الذى يَنْزُو بِهِ فَوْقَ بَطْنِها ذِراعُ بَعيرٍ من نِتاج بنِ عِزْهِلِ[٥]

موقف حسان من التنافس بين المهاجرين والأنصار

ولما فرغ الرسول من حُنَين سار إلى الطائف ، فحاصرها بضعاً وعشرين ليلة ،

---

(١) انظر ابن هشام : السيرة ٤/٤٩ و ٦٦ — دلائل النبوة حـ ٦ (باب نزول رسول الله بمر الظهران) الكامل لابن الأثير ٢/١٠٣ — العمدة ١/٣٩ .

(٢) متمطرات : مسرعات يسابق بعضها بعضاً . تلطمهن : يضربن صفحة خدودهن .

(٣) أحذ : قليل منقطع .

(٤) ابن هشام : السيرة ٤/٦١ . البداية والنهاية ٤/٣٠٨ .

(٥) ابن هشام : السيرة ٤/٨٠ و ٨٥ و ٨٦ . ينزو : يثب .

وقاتلهم ورماهم بالمنجنيق ، وتراموا بالنَّبْل ، ثم رجع عنهم[١] .

وكان مع الرسول من سَبْي هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومن الإبل والشاء ما لا يُعْلَمُ عدده ، فرد عليهم أبناءهم ونساءهم[٢] ، وقسم الفيء فى الناس ، وأعطى المؤلفة قلوبهم[٣] من قريش ومن قبائل العرب ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فَوَجَدُوا فى أنفسهم ، وكثرت القالة منهم ، وقال قائلهم : « لقى والله رسول الله قومه » وحدثه سعد بن عبادة بما فى نفوسهم ، فجمعهم وخطبهم قائلاً : « أوجَدتُم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعاعة[٤] من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضوْن يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم . . فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْباً ، وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » . فبكى القوم حتى أَخْضَلُوا[٥] لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسما وحظًّا[٦] .

فهذا حادث آخر بعد حادث جهجاه يبين ما كان بين المهاجرين والأنصار من تنافس ، تظهر آثاره جلية كلما تعرضت نفوسهم لمحنة أو تجربة ، وهذا الحادث نفسه يفسر لنا تخاذل حسان عن القول فى حنين والطائف ، على ما تعرض له المسلمون فيهما من عناء ومحنة ، وما فتح الله عليهم من فتح مبين ، فقد كان فرداً من قومه ، بل ميزاناً حساساً لمشاعرهم ، ولكنه كان إلى ذلك محبًّا للرسول ، ممتحَناً بذلك الحب ، وكان الرسول له مؤْثراً ، فغاظه ما بدا له ولقومه من عطفه على غيرهم ، وتقريبه لأولئك المتجافين عنه ، وكأنه كان يرى ويرى قومه معه فى الإسلام وليداً نما وترعرع فى أحضانهم ، وبين ديارهم ، وعز بسيوفهم وتأييدهم ، فهم أولى الناس بكرامته ، والاستظلال بسرحته ، والفخر به وبنصرته .

---

(١) ابن هشام : السيرة ٤/١٢١ و ١٢٥ و ١٢٧ .
(٢) ابن هشام : السيرة ٤/١٣١ و ١٣٢ .
(٣) المؤلفة قلوبهم : جماعة من أشراف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم .
(٤) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة شبه بها نعيم الدنيا .
(٥) أخضلوا لحاهم : بللوها بالدمع .
(٦) ابن هشام ٤/١٤١ - ١٤٣ .

قلة شعره بعد الفتح وأسبابه

ولما أسلم أولئك النفر من شعراء قريش : عمرو بن العاص[١] ، وأبو سفيان ابن الحارث[٢] ، وعبد الله بن الزبعرى[٣] ، والحارث بن هشام[٤] ، وعباس ابن مرداس[٥] ، وكعب بن زهير[٦] ، وانقطع التصاول بين الشعراء بفتح مكة ، وغلب المسلمون على غيرهم ، وصار لهؤلاء شعر فى الرسول وفى الإسلام ، أحس حسان مرارة هذه المزاحمة ، وأصابته من ذلك غيرة لذاعة ، فلجأ إلى ماضيه فى الإسلام وماضى قومه ، يقلب صحائفه ، ويستثير كامنه ، وهدأت حدة دفاعه واندفاعه ، فصار منذ ذلك الوقت أقل شعراً وأضعف نكيرا .

لم يقل حسان شعراً فى حنين إلا قوله يعاتب الرسول على حرمانه الأنصار الفىء ، على حين قال فيها عباس بن مرداس السلمى وهو حديث عهد بإسلام عشر قصائد قوية جميلة[٧] . قال حسان يعاتب ، ويعد مواقف الأنصار وما صنعوا للرسول والإسلام من قصيدته التى مطلعها[٨] :

زادَتْ هُمومٌ فماءُ العَيْنِ مُنْحَدِرُ سحًّا إذا حَفَلَتْهُ عَبْرَةٌ دِرَرُ[٩]

. . . . . .

عَلامَ تُدْعَى سُلَيْمٌ وهى نازحةٌ أَمَامَ قومٍ هُمُ آوَوْا وهم نَصَرُوا

سمَّاهمُ اللهُ أنصارًا بنصرهمُ دينَ الهُدَى وعَوَانُ الحربِ تَسْتَعِرُ[١٠]

والنَّاسُ إلبٌ علينا فيك ، ليس لنا إلا السيوفُ وأَطْرافُ القَنَا وَزَرُ[١١]

---

(١) أسلم قبيل مسير الرسول لفتح مكة . ابن هشام ٣/٢٩٠ .

(٢) أسلم والرسول فى طريقه للفتح بين المدينة ومكة — ابن هشام ٤/٤٢ .

(٣) أسلم عام الفتح بعد الفتح ابن هشام ٤/٦١ .

(٤) أسلم عام الفتح بعدالفتح ابن هشام ٤/٥٦ .

(٥) أسلم عام الفتح بعد الفتح ابن هشام ٤/٦٩ .

(٦) أسلم عام الفتح بعد الفتح ابن هشام ٤/١٤٦ .

(٧) سيرة ابن هشام ٤/٨٣ — ١١٢ .

(٨) ابن هشام ٤/١٤٠ .

(٩) السح : الصب ، حفلته . جمعته . درر : دارة سائلة .

(١٠) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة . تستعر .

(١١) إلب : بفتح الهمزة وكسرها مجتمعون . وزر : ملجأ .

كما رَدَدْنا بَبَدْر دونَ ما طَلَبُوا أَهلَ النفاقِ ، وفينا يُنْزَلُ الظَّفَرُ
ونحن جندُك يومَ النَّعْفِ من أُحُدٍ إذ حَزَّبَتْ بَطَرًا أَحْزَابَها مُضَرُ[١]
فما وَنِينَا وما خِمْنَا ، وما خَبَرُوا منا عِثارًا ، وكُلُّ الناسِ قد عَثَرُوا[٢]

ثم هجا ثقيفا وأهل الطائف باللؤم والجبن[٣] .

وتلمح عتب حسان أيضاً فى قصيدة أخرى ، يبدو أنه قالها بعد غزوة الطائف ، يفخر فيها بمجد قومه وفعالهم وماضيهم أشد الفخر ، حتى إنك لتظنه جاهليًّا لولا ما ذكر من سبق قومه إلى الإسلام وإيواء النبى ، وما ساقه من عرض مواقفهم فى الغزوات واحدة بعد أخرى ، وما أصابوا فيها من قريش والمشركين ، وفيها يقول[٤] :

فمنْ يَعْدِلِ الأَذْنابَ ويحكَ بالذُّرَى قد اختلفا بِرٌّ يَحقُّ وباطل
ونحن سَبَقْنا الناسَ مَجْدًا وسُؤْدُدًا تليدًا ، وذكرًا نامياً غيرَ خامِل
لنا جبلٌ يَعْلُو الجبالَ مُشَرَّفٌ فنحنُ بأَعْلى فَرْعِه المُتَطَاوِلِ
نصرنا وآوينا النبيَّ ، وصَدَّقَتْ أَوائِلُنا بالحَقِّ أَوَّلَ قائل

وخرج الرسول فى السنة التاسعة لغزو الروم ، فلما انتهى إلى تبوك صالحه صاحب أيْلة وصاحب دُومة ، وعاد إلى المدينة ، وكان قوم من المنافقين فيهم الضَّحَّاك بن خليفة وابن أُبَيْرِق يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى ، فيخذلون الناس عن الخروج معه ، فبعث النبى من حَرَّق عليهم البيت ، فاقتحمه المنافقون فأفلتوا ، فقال الضَّحَّاك[٥] :

كادَتْ وبيتِ اللهِ نارُ محمدٍ يَشِيطُ بها الضَّحَّاك وابن أُبَيْرِقِ[٦]

---

(١) النعف : أسفل الجبل . حزبت : جمعت . البطر : كفران النعمة وجحودها .
(٢) ونينا : ضعفنا . خمنا : جبنا .
(٣) الديوان الأرقام ٢٢ و ١٩٨ و ١٩٩ .
(٤) الديوان ١٧ .
(٥) ابن هشام : السيرة ٤/١٦٠ .
(٦) يشيط : يحترق .

وقال حسان يهجوه [١] :

أَبْلِغْ أَبا الضَّحَّاك أَنَّ عُروقَهُ أَعْيَتْ على الإِسْلام أَنْ تَتَمَجدَا

وظل حسان بعد تبوك يردد ذلك الفخر بآبائه ومجدهم قبل الإسلام ، ويعدد أيامهم وحاضرهم فيه . ويمدح الرسول فى شعر قوى كثير . يقول [٢] :

أَلستَ خيرَ معَدٍّ كلِّهـا نَفَرًا ومَعْشَرًا إن هُمُو عُمُّوا وإن حُصلوا[٣]

قومٌ همو شَهِدوا بدرًا بأَجمعهم مع الرسولِ فما أَلُّوا وما خَذَلُوا[٤]

ويمضى يعد المواقع واحدة واحدة حتى ينتهى إلى تبوك فيقول :

أولئكَ القومُ أَنصارُ النبىِّ ، وهُم قَوْمى ، أَصِيرُ إليهمْ حينَ أَتَّصِلُ [٥]

ماتوا كراماً ، ولم تُنْكَثْ عُهودُهُمُ وقَتْلُهم فى سبيل اللهِ إِذْ قُتِلُوا

ويقول فى قصيدة أخرى [٦] :

كُنا مُلوكَ الناسِ قبلَ محمدٍ فلما أَتى الإِسلامُ كان لنا الفَضْلُ

ويذكر مجدهم القديم ، وزحفهم على المدينة ، وبلاءهم فى الإسلام [٧] :

أولئكَ قَوْمى فإن تَسْأَلِى كرامٌ إذا الضيفُ يوماً أَلَمّ [٨]

ويمدح النبى والأنصار ، ولا ينسى الفخر بقومه وشجاعتهم وعريق مجدهم [٩] :

اللهُ أَكْرَمَنَا بنصرِ نبيِّهِ وبنا أَقامَ دَعَائمَ الإِسلام

---

(١) الديوان ٨٤

(٢) انظر ابن هشام ٤/١٩٩ .

(٣) حصلوا : جمعوا .

(٤) ألوا : قصروا .

(٥) اتصل : انتسب .

(٦) ابن هشام ٤/٢٠١ .

(٧) ابن هشام ٤/٢٠٢ الديوان رقم ١٦١ .

(٨) ألم : نزل .

(٩) الديوان رقم ١٦٦ .

حسان والوفود

وجاء عام الوفود ، وأقبل وفد تميم فى السنة التاسعة على رسول الله ، وفيه من أشرافهم الأقْرَع بن حَابِس والزِّبْرقان بن بدر وقيس بن عاصم وعطارد بن حاجب ، فلما دخلوا المسجد نادوا الرسول من وراء الحجرات : أن اخرج إلينا يا محمد . فخرج إليهم وقد آذاه صياحهم ، فقالوا جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا . قال : قد أذنت لخطيبكم . فقام عطارد بن حاجب فخطب ، فقال رسول الله لثابت بن قيس بن الشماس : قم فأجب الرجل فى خطبته ، فقام ثابت فأجابه .

وتقدم شاعرهم الزِّبْرقان بن بدر فقال :

نحنُ الكرامُ فلا حَىٌّ يُعَادِلنـــا ... منا الملوكُ وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ [1]

وكان حسان غائباً فبعث إليه الرسول ، فقال لمن جاءه : ما يريد منى وقد كنت عنده آنفاً ؟ فقال له : جاءَت بنو تميم بشاعرهم وخطيبهم ، وقد دعاك لتجيب شاعرهم ، فقال حسان : قد آن لكم أن تبعثوا إلى هذا العَوْد [2] ! ومضى وهو يقول :

مَنَعْنا رسولَ اللهِ إذْ حَلَّ وَسْطَنا ... على أَنْفِ راضٍ من مَعَدٍّ ورَاغِمِ
مَنَعْناه لما حَلَّ بينَ بيوتِنا ... بأَسيافِنا من كل باغٍ وظالمِ
بحَىٍّ حَرِيدٍ أَصْلُه وذِمَارُهُ ... بجَابِيَةِ الجَوْلانِ وَسْطَ الأَعاجِمِ [3]

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الرسول : أجبه يا حسان . فقال : يا رسول الله . مُره فليسمعنى ما قال . فلما أسمعه عرض فى قوله ، وقال على نحو ما قال :

إن الذَّوَائِبَ من فِهْرٍ وإخوتِهِمْ ... قد بَيَّنوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ [4]

---

(١) البيع : جمع بيعة موضع الصلاة والعبادة عند النصارى .
(٢) العود : المسن من الإبل .
(٣) حريد : منفرد عن غيره لعزته . الذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته
يريد أن النبى نزل بقوم ذوى مناعة هم الأنصار الذين يتصل نسبهم بالغساسنة بجابية الجولان .
(٤) الذوائب : السادة الأعالى .

يَرْضَى بها كلُّ مَن كانتْ سَرِيرتُهُ تَقْوَى الإلهِ وبالأمرِ الذى شَرَعوا

فقام الأقرع بن حابس — وقيل الزبرقان ، وقيل عطارد — فقال : يا محمد ، إنى والله لقد جئت فى أمرٍ ما جاء به هؤلاء ، وقد قلت شيئاً فاسمعه ، فقال له : هات . فقال :

أَتيناكَ كيما يَعْرِفَ الناسُ فَضْلَنا إذا اخْتَلَفوا عند ادِّكارِ المكارمِ
وأَنا رُءُوسُ الناسِ من كل مَعْشَرٍ وأَنْ ليس فى أَرضِ الحِجازِ كَدَارِمِ

فقال رسول الله : قم يا حسان فأجب . فقال :

هل المجد إلا السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدَى وجاهُ الملوكِ واحتمالُ العظَائِمِ[1]
نَصرنا وآوينا النبيَّ محمدًا على أَنْفِ راضٍ من مَعَدٍّ وراغِمِ
بنى دارمٍ لا تَفْخَروا إن فَخرَكُمْ يعُود وبالاً عندَ ذِكر المَكارِمِ[2]
هَبلْتُمْ ، علينا تَفْخَرُون وأَنتمُ لنا خَوَلٌ ما بَيْنَ ظِئْرٍ وخادِمِ ![3]

فقال رسول الله للأقرع : لقد كنت غنيًّا يا أخا دارم أن يذكر ما قد ظننت أن الناس قد نسوه منك . فقال الأقرع : والله إن هذا الرجل لَمُؤَتًّى له[4] ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا ، ثم أسلموا ، وأعطاهم الرسول فأحسن جوائزهم[5] .

مكانة حسان عند الرسول

فنحن نشهد هنا كيف يندب الرسول حسان لمفاخرة الوفود ، كما ندبه من قبل لهجاء المشركين ، وكيف يرسل فى طلبه وقد كان عنده منذ قليل ، فكأنه جندى شاكى السلاح ، ما يفرغ من أمر إلا لأمر ، وحسان مزهو فخور بهذه الثقة

---

(١) السودد العود : السيادة والشرف القديم .
(٢) وبالا : شدة وثقلا .
(٣) هبلتم : فقدتم وثكلتم . خول : خدم . الظئر : المرضع ولد غيرها .
(٤) مؤتى له : موفق .
(٥) ابن هشام : السيرة ٤/٢٠٦ — ٢١٢ . الأغانى ٤/٧ وما بعدها . البداية والنهاية ٥/٤١ — ٤٤ — تاريخ دمشق ٤/١٣٠ وما بعدها . الطبقات الكبرى ٢/٥٩ . دلائل النبوة حـ ٦ (باب وفد عطارد ابن حاجب فى بنى تميم) الاستيعاب ١/١٣٠ الديوان الأرقام ٢٢ و ٢٣ و ٢٥ .

وبما له من مقدرة ، وهو يحسن الأدب مع الرسول فلا يتجه إلى الزبرقان بالحديث ، ولكنه يتجه إلى الرسول أن يصدر أمره إلى الزبرقان أن يسمعه ما قال ، وهو يرتجل رده فيجيء قويًّا مفحماً ، ويكون له ما كان من أثر فى تسليم الوفد وإسلامه ، ولا ينسى حسان أن يفخر فى هذا المقام بقومه ، وما قدموا للرسول ، وبلسان له حائك صَنَع .

وليس هذا بالموقف الفريد لحسان فى هذا الجانب ، فقد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من مزينة ، منهم خزاعى بن عبد نُهَم ، فبايعه على قومه مزينة ، ثم إن خزاعيًّا خرج إلى قومه فلم يجدهم كما ظن ، فأقام ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت ، فقال له : اذكر خزاعيًّا ولا تهجه . فقال حسان :

أَلا أَبْلِغْ خُزَاعيًّا رسولًا ... بأَن الذنبَ يَغْسِلُه الوفَاءُ[1]
وأَنكَ خيرُ عثمانَ بنِ عَمْرٍو ... وأَسْناهم إذا ذُكِرَ السَّنَاءُ[2]
وبايعتَ الرسولَ وكان خَيْرًا ... إلى خَيْرٍ وأَدَّاكَ الثَّراءُ
فما يُعْجِزْكَ أَو مالا تُطِقْهُ ... من الأَشياءِ لا تَعْجِزْ عِدَاءُ

وعِداء بطنه الذى هو منه ، فقام خزاعى فقال : يا قوم لقد خصكم شاعر الرجل ، فأنشدكم الله ، قالوا : فإنا لا ننبو عليك وأسلموا ووفدوا على النبى ، فدفع الرسول لواءَ مزينة يوم الفتح إلى خزاعى ، وكانوا يومئذ ألف رجل[3] .

فانظر كيف عاتب خزاعيًّا فى رفق ، وكيف مدحه ، وكيف تأتَّى حتى أوقع قومه فى حبالته . فهذا دليل آخر على حسن تأتِّيه وترفقه فى الوصول إلى غرضه ، وما كان لشعره من الأثر الحميد .

كان حسان أثيراً عند الرسول حقًّا ، يقدمه على الشعراء ، ويندبه لكل خطير ،

---

(١) رسولا : رسالة .
(٢) أسناها : أشرفها ، والسناء : الشرف .
(٣) الطبقات الكبرى ٢/٥٧ .

ويدعو له بالتأييد، ويحسن الإصغاء إليه، ويقيم له منبراً فى مسجده[١]، ينافح من فوقه عن الإسلام، ويفتقده إذا غاب، ويصطحبه إذا سافر، ويصفح عنه إذا أخطأ، ويشيد بجهاده فى الله، ويجزل ثوابه على ما قدم.

كان النبى ليلة على سفر فقال: أين حسان؟ فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسَعْديك، قال: احدُ، فجعل حسان ينشد والنبى يصغى إليه، فما زال يستمع له وهو يسوق راحلته، حتى كان رأس الراحلة يمس الورك طرباً لنشيده، فلما فرغ قال له الرسول: لهذا أشد عليهم من وقع النبل[٢].

وبلغ النبى أن قوماً نالوا أبا بكر بألسنتهم، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، ليس أحد منكم أمنَّ علىَّ فى ذات يده ونفسه من أبى بكر، كلكم قال لى كذبت إلا أبا بكر قال: صدقت. فلو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ثم التفت إلى حسان فقال: هات ما قلت فىّ وفى أبى بكر، فقال حسان:

إذا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا من أَخى ثِقَةٍ ... فاذكر أَخاك أَبابكرٍ بما فَعَلاَ

الثانىَ التالىَ المحمودَ شِيمَتُهُ ... وأَولَ النَّاسِ طُرًّا صَدق الرُّسُلاَ

والثانىَ اثنينِ فى الغارِ المُنِيفِ وقد ... طاف العدُو به إذْ صَعَّدَ الجَبَلاَ

وكان حِبَّ رسولِ اللهِ قد عَلِمُوا ... من البَرِيَّةِ لم يَعْدِلْ به رَجُلاَ

خيرُ البَرِيَّةِ أَتْقاها وأَرْأَفُهـا ... بعدَ النبىِّ وأَوْفاها بما حَمَلاَ

فقال صلى الله عليه وسلم: صدقتَ يا حسان. دعوا لى صاحبى، دعوا لى صاحبى، دعوا لى صاحبى[٣].

وأتى الحارث بن عوف المرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ابعث معى من يدعو إلى دينك وأنا له جار، فأرسل معه رجلا من الأنصار، فغدرت بالحارث

---

(١) تاريخ دمشق ٤/١٢٥، الإصابة ٢/٨ – الكامل المبرد ٨/٢٦١. مفتاح السعادة ١/١٩٠ – أبجد العلوم ص ٢٠٣ – أسد الغابة ص ٤. الوسيط ص ١٥٨. مسند ابن حنبل ٦/٧٢ – سنن الترمذى ك ٤١ ب ٧٠.

(٢) الأغانى ٤/٦ – تاريخ دمشق ٤/١٢٩.

(٣) الجمهرة ص ١٥.

عشيرته فقتلوا الأنصارى ، فقدم الحارث على رسول الله ، وكان عليه السلام لا يؤنب أحداً فى وجهه ، فقال : ادعوا لى حسان ، فدعى له . فلما رأى الحارث أنشده :

يا حارِ من يَغْدِرْ بذِمَّةِ جارِه ... منكمْ فإنَّ محمدًا لم يَغْدِرِ
إن تَغْدِرُوا فالغَدْرُ منكم شِيمَةٌ ... والغَدْرُ يَنْبُتُ فى أصولِ السَّخْبَرِ
وأَمانةُ المُرِّىِّ حيثُ لَقِيتَهُ ... مِثلُ الزجاجَةِ صَدْعُها لم يُجْبَرِ

فقال الحارث : يا محمد . أنا عائذ بك من شعره ، اكْفُفْه عنى وأُؤَدِّىَ إليك دية الخفارة ، فأدى إلى النبى سبعين عُشَرَاء[1] .

وهكذا لم يكن حسان « شاعر الرسول » — كما قالت السيدة عائشة [2] — ولا « شاعر الإسلام » فحسب . ولكنه كان مؤرخ الإسلام أيضاً ، صاحب مواقفه وأحداثه فأحصاها وعدها عدًّ . وتتبع أبطاله وشهداءه فمدحهم ورثاهم لم ينس منهم أحداً . وتعقب خصومه وأعداءه فدمغهم وهجاهم فرداً فرداً ، ووسمهم وسوماً باقية على الأيام ، وأودع ذلك كله سجلاً مسطوراً . وكتاباً منشوراً .

موت الرسول وأثره فى حياته وشعره

وكذلك قضى حسان عشر سنوات فى ظل الرسول . مستمتعاً بالحياطة والعطف والتقدير والتقديم . شديد الحب له . قوى العصبية للإسلام ، ظاهر الاعتزاز بقومه ، حتى إذا حل ذلك الرزء الفادح بالإسلام والمسلمين . وعا محمداً ربه إليه . فانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . عظمت به مصيبة المسلمين ، وصاروا كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية . دهى ذلك الخطب الناس ، وكان مصاب حسان فيه أعظم من أن يحتمله ، وطاش بألباب الصحابة ، فجعل عمر — وهو ذلك الجبل الراسى — يخرج إلى الناس قائلا : « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه

---

(١) الأغانى ٤/١١ . انظر تاريخ دمشق ٤/١٣١ — الديوان رقم ٤١ .

(٢) الاستيعاب ٤/١٢٨ .

أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله مات » .

وأقبل أبو بكر يقول : على رِسْلِكَ يا عمر ، أنصت ، فأبى عمر إلا أن يمضى فى قوله ، فأقبل أبو بكر يتلو على الناس : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » . قال عمر : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعَقِرت[1] حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله قد مات »[2] .

كان يوماً رهيباً ، ذَهِلَت فيه كل نفس عن نفسها ، وأحس الناس لحظة أن العروة الوثقى التى كانت تجمعهم قد انفصمت ، وأن القيادة العظمى التى يدينون لها قد خلت ، وقدر الأنصار أن المكانة التى كسبوها بهجرة النبى إليهم وحياته بينهم قد زُلزلت وهددت ، فقال قائل منهم : منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش[3] . وكان هذا الخطب جديراً أن يُذهل حسان عن نفسه ، ويطيش بلبه ، ويلجم فاه ، ويخرس لسانه . أدرك حسان بين عشية وضحاها أنه فقد راعيه المسئول ، وفقد بفقده ذلك الظل الظليل ، والجاه العريض ، والعز والمنعة والحصانة والتكريم ، وأحس أنه قد هيض منه الجناح ، وأضحى غريباً وحيداً بأجرد ضاح ، فالتاع وارتاع ، وحاول أن يبكيه وأن يرثيه ، فما أسعفه البكاء ، وما واتاه الرثاء .

بكى حسان بموت الرسول نفسه ، وبكى قومه ، لكن المصاب كان فوق ما قال على حزنه ، وكان هو أضعف من أن يقول فى حزنه ، وإنه ليعرف ذلك ، ويعترف به فى قوله[4] :

يُذَكِّرْنَ آلاءَ الرسولِ وما أرَى ... لها مُحْصِياً نفسى ، فنفسى تَبلَّدُ[5]

---

(١) عقرت : تحيرت ودهشت .
(٢) ابن هشام : السيرة ٤/٣٠٥ – ٣٠٦ .
(٣) ابن هشام : السيرة ٤/٣١٠ .
(٤) ابن هشام : السيرة ٤/٣١٧ .
(٥) آلاء : نعم .

مُفَجَّعَةٌ قد شَفَّها فَقْدُ أَحمدٍ فظلَّتْ لآلاءِ الرسولِ تُعَدِّدُ[١]
وما بلغتْ من كلِّ أمرٍ عَشِيرَهُ ولكنْ لِنَفْسى بعدُ ما قدتَوَجَّدُ[٢]

وفى قوله[٣] :

فظَلِلْتُ بعدَ وفاتِه مُتَبَلِّدًا مُتَلَدِّدًا يا ليتنى لم أُولَدِ[٤]
أَأُقيمُ بعدَكَ بالمدينةِ بينَهُمْ يا ليتنى صُبِّحْتُ سَمَّ الأَسْوَدِ[٥]
ضاقتْ بالانصارِ البلادُ فأَصْبَحُوا سودًا وجوهُهُمُ كَلَوْنِ الإِثْمِدِ[٦]
ولقد وَلَدْناهُ وفينا قبرُهُ وفُضُولُ نِعمتِه بنا لم نَجْحَدِ[٧]

ويذكر وحشته بعده ، وتطلعه إلى العطف الشامل ، والرعاية السابغة ، وذلك الأمل الضائع ، فيما ألفه عند الرسول ، من صدرٍ حان ، وقلب رحيم ، وصفح كريم[٨] :

مَنْ ذا الذى عندَه رَحْلِى وراحِلَتى ورزقُ أَهْلِى إذا لم يُؤْنِسُوا المَطَرَا؟[٩]
أَم من نُعَاتِبُ لا نَخْشَى جَنَادِعَهُ إذا اللسانُ عَتَا فى القولِ أَو عَثَرَا[١٠]
كان الضياءَ وكان النورَ نَتْبَعُهُ بعدَ الإِلهِ وكان السَّمْعَ والبَصَرا
ذَلَّتْ رِقابُ بنى النجارِ كُلِّهِمِ وكان أَمرًا من امْرِ اللهِ قد قُدِرَا

ثم يقول[١١] :

---

(١) شفه : أضعفه .
(٢) العشير : العشر ، توجد : تحزن ؛ من الوجد وهو الحزن .
(٣) ابن هشام : السيرة ٤/ ٣٢٠ — الديوان رقم ١٣٣ .
(٤) متلدد : متحير .
(٥) صبحت : سقيت صباحاً . الأسود : نوع من الحيات .
(٦) الإثمد : الكحل .
(٧) ولدناه : إشارة إلى خئولة بنى النجار لآباء النبى .
(٨) ابن هشام : السيرة ٤/ ٣٢١ .
(٩) الرحل : للبعير كالسرج للفرس — الراحلة : دابة الحمل . يؤنس : يجد .
(١٠) الجنادع : أوائل الشر . عتا : زاد وطغى .
(١١) ابن هشام : السيرة ٤/ ٣٢٢ . الديوان رقم ١٤٤ .

يا أفضلَ الناسِ إنى كنتُ فى نَهَرٍ أَصْبَحتُ منه كمثل المُفْرَدِ الصَّادِى[١]

وكأنه وهو يقول ما قال كان يرى بظهر الغيب عاقبة أمره .

كانت شخصية الرسول ملهمة لحسان حماسته ومضاءَه ، ممدة له فى قواه ، وكانت سراجه وهداه ، وكانت قوته الدافعة ، وحيويته الدافقة ، وقد أتم الله على المسلمين نعمته ، ودانت جزيرة العرب للإسلام ، فانقطع بذلك التصاول بين الشعراء ، ولم يعد لإطالة حسان التغنى بحسن بلاء الأنصار فى رفع لوائه — بعد أن شاركهم هذا الفخر غيرهم من المسلمين — مجال واسع ، وأصبح همّ الخلفاء جمع كلمة الأمة ، وشغل الناس عن الشعر حيناً بالقرآن ، والتفقه فى الدين ، والاهتمام بالفتوح ، وتقدمت بحسان السن ، فانزوى ، وهدأت تلك الجذوة التى كانت تتقد بالشعر بين جنبيه ، فما تسمع له صوتاً إلا إذا استحثته عليه الدواعى ، أو غلبته أسباب التحريض ، فقال أبياتاً يزكى بها أبا بكر ، ويهدد الخارجين أيام الرِّدة[٢] ، وأبياتاً أخرى فى رثائه[٣] ، بعضها مما مدحه به قبل موته .

حسان وعمر وبعض الصحابة

وجاءَت خلافة عمر ، وكان حسان يلتمس الترفيه عن نفسه أحياناً باستعادة أطياف مجده الغارب ، فيقوم فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد شعره ، وربما كان فى هذا الشعر أذى لبعض المهاجرين قاله فيهم قبل أن يسلموا ، وربما التف حوله قوم من الأنصار فاستحسنوا ما يسمعون منه ، فلم يرض ذلك عمر ، فمر به مرة وهو ينشد بالمسجد ، فانتهره ، فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ، فوالله لقد كنت أنشد فيه من هو خير منك فلا يُغَيَّر علىّ . فقال عمر : صدقت . ثم التفت حسان إلى أبى هريرة ، فقال : أنْشُدُكَ الله ! هل سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « يا حسان . أجب عن رسول الله ، اللهم أيده بروح القدس » قال : اللهم نعم[٤] .

---

(١) الصادى : العطشان .

(٢) الديوان رقم ١٧٢ .

(٣) الديوان رقم ٣٤ .

(٤) البخارى ك ٨ ب ٦٨ . مسلم ك ٤٤ ج ١٥١ وما بعدها . العمدة ١/١٠ الإصابة ٢/٨ — الأغانى ٤/٦ — تاريخ دمشق ٤/١٢٥ — الاستيعاب ١/١٢٩ .

ونهى عمر عن رواية ما كان بين شعراء الأنصار ومشركى قريش من المناقضات ، وقال : فى ذلك شتم الحى بالميت ، وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام[١] . فانصرف عنه نفر ممن كانوا يستمعون له ، كما انصرف عنه من قبل كثير من المهاجرين . ولم ينس القرشيون لحسان أنه كان سيفاً مصلتاً على رقابهم فى صدر الإسلام ، وأنه وترهم بلسانه كما وترهم على بن أبى طالب بسيفه ، فكرهوا هذا وذاك .

مرّ الزبير بن العوّام بمجلس من أصحاب النبى وحسان ينشدهم ، وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره ، فقال : « مالى أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيْعة ؛ لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ، ويجزل عليه ثوابه ، ولا يشتغل عنه بشىء » فعرف حسان له صنيعه ، وقال يمدحه :

أَقامَ على عهْدِ النبىِّ وهَـدْيِهِ حَوَارِيُّهُ ، والقَوْلُ بالفعل يُعْدَلُ[٢]

واعتل آخرون بما كان من قوله فى الإفك فتنكروا له ، وحاولوا إثارة السيدة عائشة عليه ، ولكنها كانت قد عفت وصفحت الصفح الجميل ، لما قدم من دفاع عن الرسول ، فنهت الذين ذكروه عندها ، وقالت : إنه الذى قال :

فإنَّ أَبِى ووالدَه وعِرْضى لعِرْض محمدٍ منكم وِقاءُ[٣]

وقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عنه : « لا يحبه إلا مؤمن ، ولا يبغضه إلا منافق »[٤] . وجاء رجل إلى ابن عباس فقال له : قد جاء حسان اللعين ، فقال : ما هو بلعين ، لقد جاهد مع رسول الله بنفسه ولسانه[٥] . فقال حسان يمدحه[٦] :

---

(١) الأغانى ٤/٥ الاستيعاب ١/١٢٩ . أسد الغابة ص ٥ .
(٢) الأغانى ٤/٧ – العمدة ١/١٠ .
(٣) البخارى ك ٦٤ ب ٣٤ . الاستيعاب ١/١٢٩ – أسد الغابة ص ٦ . الأغانى ٤/١٠ ، ١٤ – ١٥ .
(٤) تاريخ دمشق ٤/١٢٥ – ١٢٧ .
(٥) تاريخ دمشق ٤/١٢٧ – تهذيب التهذيب ٢/٢٤٧ .
(٦) الديوان رقم ١٧٠ .

إذا قال لم يَتْرُكْ مقالاً لقائلٍ بمُلْتَقَطاتٍ لا تَرى بينَها فَضْلاَ[١]
كَفَى وشَفَى ما فِى النفوسِ فلم يَدَعْ لذى إرْبَةٍ فى القول جِدًّا ولا هَزْلاَ[٢]
سَمَوْتَ إلى العَلْيَا بغَيْرِ مَشَقةٍ فنِلْتَ ذُرَاها لا دَنِيًّا ولا وَغْلاَ[٣]

وقام بعضهم يتلمس له العثرات . سمع ابن عمر قول حسان :

يأْبَى لىَ السيفُ واللسانُ وقَوْ مٌ لم يُضَاموا كلِبْدَةِ الأَسَدِ

فقال : أفلا قال : يأبى لى الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله[٤] . فلم يزن قوله ذاك بميزان الشعراء ، وإنما حاسبه حساب الفقهاء .

وقد بدا لعبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب أن يهيجا حسان وأن يعابثاه ، فقدما المدينة ، ونزلا على أبى أحمد بن جحش ، وقالا له : نحب أن ترسل إلى حسان بن ثابت حتى يأتى ، فننشده وينشدنا مما قلنا له وقال لنا . فأرسل إليه فجاءه ؛ فقال له يا أبا الوليد : هذان أخواك ابن الزبعرى وضرار ، قد جاءا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالا لك وقلت لهما ، فقال ابن الزبعرى وضرار : نعم يا أبا الوليد ، إن شعرك كان يحتمل فى الإسلام ولا يحتمل شعرنا ، وقد أحببنا أن نسمعك وتسمعنا ، فقال حسان : أفتبدآن أم أبدأ ؟ قالا : نبدأ نحن . قال : ابدأا به ، فأنشداه حتى فار فصار كالمرجل غضباً ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة ، فخرج حسان حتى دخل على عمر بن الخطاب ، فقص عليه قصتهما وقصته ، فقال عمر : لن يذهبا عنك بشىء إن شاء الله ، وأرسل من يردهما عليه ولو وردا مكة ، فوافاهما الرسول بالرَّوْحاء فردهما إليه ، فدعا عمر بحسان وهو فى جماعة من الصحابة ، فقال لحسان : أنشدهما مما قلت لهما ، فأنشدهما حتى فرغ فوقف ، فقال له عمر : أفرغت . قال : نعم . فقال له : أنشداك فى الخلا وأنشدتهما فى الملا ، وأذن لهما فى الانصراف ، وقال لمن حوله : « إنى كنت قد نهيتكم أن تذكروا شيئاً مما كان بين المسلمين والمشركين ، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم ،

---

(١) ملتقطات : ألفاظ مختارة منتقاة . فضلا : زيادة .
(٢) إربة : حاجة .
(٣) الذرا : الأعالى . الدنى : الدنىء الوضيع ؛ الوغل : الداخل فى قوم ليس منهم .
(٤) ذيل الأمالى ص ١١٢ .

فأما إذ أبوا فاكتبوه واحتفظوا به » . فدونوا ذلك عندهم ، وكانت الأنصار تجدده إذا خافت بلاه[١] .

كان عمر يعرف لحسان مكانه فى عالم الشعر ، فكان يندبه خبيراً ، يفصل فيما يعرض عليه من خصومات الشعر والشعراء ، وقد كان بوسعه أن يستفتى سواه . هجا الحُطَيْئَة الزِّبْرِقان بن بدر بقصيدته التى يقول فيها :

دَعِ المَكارِمَ لا تَرْحَلْ لبُغْيَتِها واقعُدْ فإنك أنتَ الطاعِمُ الكاسى

فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطاب ، فرفعه عمر إليه ، وقال علىّ بحسان ، واستنشده فأنشده ، فقال عمر لحسان ، أتراه هجاه ؟ قال : نعم ، وسَلَحَ[٢] عليه . فحبسه عمر[٣] . وكذلك فعل حين استعداه رهط تميم بن مُقْبِل على النَّجاشىّ إذ هجاه ، فأسلم النظر فى أمرهم إلى حسان بن ثابت ، فراراً من التعرض لأحدهم ، وتركا لأمرهم إلى شاعر مثلهم ، حتى يكون فى حكمه مقنع لهم ، ولما حكم حسان أنفذ عمر حكمه على النجاشىّ[٤] .

فخر الأنصار بشعر حسان

وكان الأنصار يتباهَوْن بشعر حسان . قدم الفرزدق المدينة ، فجلس بالمسجد معه كُثَيِّر وإبراهيم بن محمد بن سعد بن أبى وَقَّاص يتناشدون الأشعار ، فطلع عليهم فتى من الأنصار ، فقال : أيكم الفرزدق ؟ فلما عرفه قال : بلغنى أنك تزعم أنك أشعر العرب ، وتزعم مضر ذلك لك ، وقد قال صاحبنا حسان شعراً فأردت أن أعرضه عليك ، وأؤجلك سنة ، فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب ، وإلا فأنت كذاب منتحل ، ثم أنشده قول حسان :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحا وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَما

وأتم القصيدة كلها ، ثم انصرف ، وانصرف الفرزدق مغضباً يسحب رداءه ،

---

(١) الأغانى ٤/٥ .

(٢) سلح : أرسل ما فى جوفه ، والسلاح البراز .

(٣) الأغانى « طبع دار الكتب » ٢/١٨٥ – البيان والتبيين ١/٢٠٢ . العمدة ١/٤٥ . العقد الفريد ٦/١٦٧ .

(٤) العمدة ١/٤٥ – ٤٦ .

ما يدرى أى طريق يسلك حتى خرج من المسجد ، فما زال يكد قريحته حتى عاد فى اليوم التالى وقد قال قصيدة عدتها مائة وثلاثة عشر بيتاً مطلعها :

عَرَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وما كِدْتَ تَعْرِفُ وأَنكرتَ من حَدْراءَ ما كنتَ تَعرفُ

فأنشدها بالمسجد والأنصارى يسمع ، فلما فرغ من إنشاده ، قام الأنصارى كئيبا [١] . وكذلك كان الخزرج يفاخرون الأوس بتأييد الله حسان فى شعره بروح القدس [٢] .

عماه

وفى أيام عمر سلب حسان كريمتيه [٣] ، ففقد نعمة البصر [٤] ، وشلّت [٥] يده ، فازداد أسى وحسرة على ما فات ، فكان يروّح عن نفسه بغشيان مجالس الغناء ، يسعى إليها يقوده ابنه عبد الرحمن ، وكان الغناء يكون فى العُرُسَات ويكثر فى المآدب ، ولا يُحْضَر بسفه ، ولا يُكَدَّر بسوء حال [٦] .

حدثوا عن أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى وغيره ، قال : كانت وليمة فى أخوالنا ، وهم حىٌّ يقال لهم بنو نُبَيْط من الأنصار ، فحضر الناس ، وجاء حسان ابن ثابت وقد ذهب بصره ، ومعه ابنه عبد الرحمن يقوده ، فلما وضع الطعام وجىء بالثريد قال حسان لابنه : أطعام يَدٍ أم طعامُ يَدَيْن؟ فقال : بل طعام يد . فأكل ، ثم جىء بالشواء ، فقال : أطعامُ يد أم طعامُ يدين ؟ فقال : طعام يدين ، فأمسك [٧] ، وفى المجلس قينتان تغنيان بشعر حسان :

---

(١) الأغانى ٩/٣٣٧ — ٣٣٨ .

(٢) العقد الفريد ٣/٢٧٩ .

(٣) كريمتيه : عينيه .

(٤) البخارى ك ٦٤ ب ٣٤ . القسطلانى ٧/٣٠٥ — الأغانى ١٤/٦ . عيون الأخبار ١/٣٢١ خزانة الأدب ١/١٥٧ — الشعر والشعراء ١٠٤ — الكامل للمبرد ٦/٨ .

(٥) عيون الأخبار ١/٣٢١ — وفى القسطلانى ٧/٣٠٥ أن حسان عمى وشلت يداه .

(٦) عيون الأخبار ١/٣٢١ — تاريخ دمشق ٤/١٣٢ — ١٣٣ .

(٧) من هذا يؤخذ أنه كان أشل اليد لا اليدين ، لأنه كان يأكل من الطعام ما ينفع فى تناوله يد واحدة ، ويمتنع عما يحتاج لليدين معاً .

انظُرْ خليلِي ببابِ جِلِّق هلْ تُونِسُ دونَ البَلْقاءِ من أَحَدِ ؟

فجعل حسان يبكي ويقول : لقد رأيتُنى هناك سميعاً بصيراً . فلما سكتتا همد عنه البكاء ، فأومأ إليهما عبد الرحمن أن زيدا ، فإذا غنتا هاج عليه البكاء . قال : فعجبت لَعَمْرُ الله ماذا يعجبه من أن تُبكيا أباه[١] .

حسان والغساسنة بعد الإسلام

كان عبد الرحمن بن حسان يحب أن يفخر بشعر أبيه وغناء الناس فيه ، وكان يعلم أنه ليس أحب إلى الشاعر من أن يسمع الغناء فى شعره . أما بكاء أبيه فلعله كان شفاء له من همومه . وكثيراً ما يحب الإنسان أن يسمع ما يبكيه ، ويجد فى ذلك لذة نفسه وراحة صدره . كان الناس يعرفون من حسان حنينه لتلك الأيام الخوالى ، وحسرته على ما فات من نعمة البصر والشباب ، وكان أعرَفَهم بذلك منه ابنه عبد الرحمن ، فكان إذا حضر أبوه مجلس لهو ، وشق وجوده على فتيان قريش ، طلب من القينة أن تغنيهم شيئاً من شعر أبيه فى الغساسنة ، فإذا غنت بكى حسان بكاءً شديداً ، ثم انصرف قائلا : « لعمرى لقد كرهتم مجلسى منذ اليوم »[٢] .

وحسان معذور فى حنينه إلى الغسانيين وإبقائه على عهدهم ، فذلك لون من الوفاء الجميل يعمر القلوب الكبيرة ، وإنما يبكى حسان من أيامهم مجد آبائه الغابر ، وتلك العزة المتطاولة التى تقلب فى أحضانها حيناً من الدهر ، تتلقاه أيدى الحفاوة والتكريم ، وتلك الصور الساحرة من الحضارة الزاهية تهفو إليها النفوس الشاعرة ، وقد ظلت تلك الصور تطل عليه من كل جانب ، وتمرح فى خياله عزيزة عليه ، محببة إليه ، فلما كانت موقعة اليرموك الحاسمة ، وقضى على الروم والغساسنة سنة ١٣ هـ وقف حسان أمام صورة من هذه الصور ، يتأملها ويتملاها ويستعيدها ، وهى تولى مدبرة وتختفى بين طوايا الزوال ، تلك صورة عيد بهيج من أعياد الفصح فى بلاط الجفنيين العظام[٣] :

---

(١) عيون الأخبار ١/٣٢١ – تاريخ دمشق ٤/١٣٢ – ١٣٣ – الكامل للمبرد ٦/٨ .
(٢) الأغانى ١٦/١٦ .
(٣) تاريخ دمشق ٤/١٣٩ – الديوان رقم ١٢٥ .

لِمَن الدارُ أَوْحَشَتْ بِمَعَـانِ بينَ أَعْلَى اليَرْموك فالخَمَّانِ[١]
فالقُرَيَّاتِ من بَلاَسِ فَدارِيًّا فَسَكَّاءَ فالقصورِ الدَّوَانِى[٢]
قد دنا الفِصْحُ فالوَلائدُ يَنْظِمْـــنَ قُعُودًا أَكِلَّةَ المَرْجَانِ[٣]
يَجْتَنِينَ الجَادِىَّ فى نُقَبِ الرَّيْـــطِ عليها مَجَاسِدُ الكَتَّانِ[٤]
ذاكَ مَغْنًى من آلِ جَفْنَةَ فى الدَّهْـــرِ وحَقٌّ تَعَاقُبُ الأَزْمانِ[٥]

كان يستعيد ذلك كله ، ولم يكن يحلم بالخمر والغناء والعطور والفتيات هناك – دون سواها – كما يقول نولدكه[٦] :

كان حسان والغساسنة يتبادلان الوفاء، وكان شعره هو المظهر الفنى لحضارتهم[٧] ، وطاقات الزهر الندية الأرجة التى تعطر مجالسهم ، وإذا كانت أحداث الإسلام قد قطعت بينهم أسباب التواصل ، فقد بقى بينهم الود وأقام الذكر[٨] .

وفد رسول عمر على هرقل ملك الروم يدعوه إلى الإسلام ، فأدخله على جبلة بن الأيهم ، فرأى عنده من البهجة والحسن والسرور ما لم ير مثله عند هرقل ، وفى مجلسه الطيب والجوارى الحسان يخفقن بالعيدان ، ويغنين :

لله دَرُّ عصابةٍ نادمْتُهُمْ يوماً بجِلِّقَ فى الزمان الأَوّل
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهم شُمُّ الأُنوفِ من الطِّرازِ الأَوّل

وجبلة مستبشر طروب ، يقول زدْنَنى ، فيغنين :

لِمَنْ الدارُ أَوْحَشَتْ بمَعَانِ بينَ أعلى اليَرْموك فالخَمَّان

---

(١) معان : قرية بالشام . اليرموك : نهر هناك . الخمان : موضع هناك أيضاً .
(٢) القريات ، بلاس ، داريا ؛ سكاء : مواضع بالشام .
(٣) الولائد : جمع وليدة وهى الجارية الصغيرة الحسناء . أكلة : جمع إكليل .
(٤) الجادى : الزعفران . نقب : جمع نقبة وهى كالإزار وتشد كالسراويل ؛ الريط : جمع ريطة . الثوب الرقيق اللين – مجاسد . جمع مجسد وهو القميص .
(٥) المغنى : مكان الإقامة .
(٦) أمراء غسان ص ٤٥ .
(٧) دراسات إسلامية ص ٤٣ .
(٨) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٧٥ .

فقال جبلة للرسول : أتعرف هذه المنازل ؟ قال : لا . قال : هذه منازلنا فى ملكنا بأكناف دمشق ، وهذا شعر ابن الفريعة حسان بن ثابت ، فما شأنه ؟ قال : أما إنه مضرور البصر ، كبير السن ، قال : يا جارية . هاتى . فأتته بخمسمائة دينار وخمسة أثواب من الديباج ، وأحضر جمالا موقرة بُرًّا . فقال : إن وجدته حيًّا فادفع هذه إليه ، وأقرئه منى السلام ، وإن وجدته ميتاً فادفعها إلى أهله ، وانحر الجمال على قبره ، فلما عاد الرسول إلى عمر قص ما كان ، فأرسل عمر إلى حسان ، فأقبل يقوده قائده ، فلما دنا سلم ، وقال : يا أمير المؤمنين إنى لأجد ريح آل جفنة ، فقال عمر : قد نزع الله تبارك وتعالى لك منه على رغم أنفه ، وأتاك بمعونة ، فلما عرف حسان ما أمر به جبلة فى الإبل قال : لوددت أنى كنت ميتاً فنحرت على قبرى . وانصرف وهو يقول :

إن ابنَ جَفْنَةَ من بَقِيَّةِ مَعْشَرٍ لم يَغْذُهُمْ آباؤهم باللُّوم
لم يَنْسَنى بالشامِ إذ هُوَ ربُّها كَلاَّ ولا مُتَنَصِّرًا بالرُّومِ

فقال له رجل : أتذكر قوماً كانوا ملوكاً فأبادهم الله وأفناهم ! فقال : ممن الرجل؟ قال : مزنى . قال : أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطوّقتك[1] طوْق الحمامة[2] . ويقول حسان : ما أرسل إلىّ جبلة بالسلام قط إلا ومعه شىء[3] . وقد أوردت بعض المراجع هذه القصة وذكرت أنها وقعت زمن معاوية ، وأن ذلك الرسول كان رسوله إلى هرقل[4] . ويبدو أن حسان إذ ذاك لم يكن فى سعة من العيش ، فإن عمر يقول له : إن الله قد نزع لك منه رغم أنفه ، وأتاك بمعونة ، ولكنه كان إلى ذلك أبىّ النفس ، جنوحاً إلى التعالى والزهو ، مؤثراً للأحاديث والذكر ، الموت المُعْجِب المُعْلِم أحب إليه من حياة متواضعة ، فقد تمنى أن لو كان ميتاً فتُنْحر تلك الإبل على قبره .

أسَنَّ حسان ، وكُفَّ بصره ، ووهن منه العظم ، وركدت الحياة حوله ، وركدت

---

(١) أى لهجوتك هجاء لا يفارقك كما لا يفارق الطوق عنق الحمامة .
(٢) الأغانى ١٤/٦ – ٧ العقد الفريد ٢/٥٦ – ٦٢ المحاسن والمساوىء ١/٥٣ – ٥٦ .
(٣) الأغانى ١٤/٧ .
(٤) الشعر والشعراء ١٠٤ – الأغانى ١٤/٧

معها ريحه ، فعزف عن المصاولة ، وكره أن يستحدث له خصوماً وقد ابتلى من قديمهم بكثير ، وكان فى ابنه عبد الرحمن جلد على ذلك ، وكان مهجوُّوه يعطفون على أبيه فى هجائهم إياه ، فأراد أن يكف من غرب ابنه ، فقال له حين هجا النجاشى [١] :

إياكَ ، إنى قد كَبِرتُ ، وغَالَنى عنك الغوائِلُ عندَ شَيْبِ المَكْبِرِ
أَجْزَرْتَهُمْ عِرْضِى تَهَكَّمُ سادِرًا ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ، غَيْرَ عِرْضِىَ أَجْزِرِ [٢]
هَدَفٌ تَعَاوَرَهُ الرُّماةُ ، كأَنهم يَرْمُونَ جَنْدَلَةً بعُرْضِ المَشْعَرِ [٣]

ومات عمر ، فلم يكن نصيبه من حسان بأكثر من نصيب أبى بكر ، فرثاه بثلاثة أبيات ، ولو أن حسان نظر إليه نظر المرء إلى خليفة المسلمين العظيم ، الذى فتح الله على يديه أبواب الخير للأمة لأطال فى رثائه ، ولوجد مجال القول ذا سعة ، ولكنه لم يهتز لحادث بعد فقد الرسول . ولم يستعظم موت أحد بعده . ولم يكن له من الصلات الخاصة بالخليفتين ما يثير شاعريته ويلهمها قوافيه الأوابد ، على شيخوخته وتقدم السن به ، لكن تلك الأبيات الثلاثة على قلتها تصور عمر وحكومته خير تصوير قال [٤] :

وَفَجَّعَنَا فَيْرُوزُ لا دَرَّ دَرُّهُ بأَبيضَ يَتْلو المُحْكماتِ مُنِيبِ [٥]
رءُوفٍ على الأَدْنَى غليظٍ على العِدَا أَخى ثِقةٍ فى النائباتِ نَجِيبِ
متى ما يَقُلْ لا يَكْذِبِ القولَ فِعلُه سريعٌ إلى الخيراتِ غيرُ قَطُوبِ [٦]

---

(١) الديوان رقم ٨٥ – النجاشى : شاعر يمنى هجاء .
(٢) أجزره : قدمه للذبح .
(٣) تعاوره : تعاقب عليه ، جندلة : صخرة ، عرض المشعر : جانبه . والمشعر الحرام من مناسك الحج .
(٤) الديوان رقم ١٣٥ .
(٥) لا در دره : لازكا عمله . المحكمات : آيات الكتاب .
(٦) قطوب : عبوس .

عثمانيته

وصار الأمر إلى عثمان ، ولآل حسان به صلة ، وبينهم وبينه آصرة حب ومودة ، فقد نزل عثمان على أوس بن ثابت أخي حسان في دار بني النجار ، حين وفد الرسول على المدينة وآخى بين المهاجرين والأنصار[١] ، وكان حسان عثمانيا منحرفاً عن غيره ، وكان عثمان إليه محسناً [٢] ، ويتجلى حبه لعثمان في مراثيه[٣] له . أيقظ هذا الحب في حسان تلك الحَمِيَّة القديمة والحماسة المشهودة ، وكان مقتل عثمان على تلك الصورة البشعة مثيراً للمشاعر ، داعياً إلى السخط والغضب ، فجاء شعره فيه حاراً قويا ، وصف مقتله ، وهجا القتلة ، وهدد الأنصار الذين قعدوا عن نصرته ، وحرضهم على الثأر به ، ثم ما زال يزحف حتى جعل جريرة مقتل عثمان تقف بباب علي بن أبي طالب[٤] ، إذ يقول :

من سَرَّهُ الموتُ صِرفاً لا مِزَاجَ له ... فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً في دارِ عُثْمانَا[٥]

مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ المَاذِيِّ ، قد سَفَعَتْ ... فَوْقَ المَخَاطِمِ بَيْضٌ زانَ أَبْدانَا[٦]

بل ليتَ شِعري ، وليتَ الطَّيْرَ تُخْبِرُني ... ما كان شَأْنُ عَلِيٍّ وابنِ عَفَّانا

لتَسْمَعُنَّ وَشِيكاً في دِيارِكُمُ ... اللهُ أَكبرُ يا ثَارَاتِ عُثْمَانَا[٧]

موقف حسان من علي

وامتنع حسان ونفرٌ يسير من الأنصار عن بيعة علي ، ويقول ابن الأثير تعليل ذلك[٨] : « فأما حسان فكان شاعراً لا يبالي ما يصنع ، وأما زيد بن ثابت

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢/١٢٣ .

(٢) مروج الذهب ٢/٢٣٤ .

(٣) الديوان ٢٠ و ٣٠ – ٣١ – ٣٢ – ٣٣ – ١٥٧ – ١٦٢ – ١٦٥ .

(٤) الديوان رقم ٢٠ .

(٥) المأسدة : موضع الأسود ، أو هي الأسود جمع أسد كشيخة جمع شيخ .

(٦) الماذي : الدروع البيض المصقولة واستشعروا حلقها أي لبسوها مما يلي أجسامهم . سفعت : ضربت ولطمت . المخاطم : الأنوف . البيض : جمع بيضة . لباس الرأس في الحرب من الحلق تشبه الخوذة.

(٧) وشيكا : قريباً .

(٨) الكامل ٣/٨٠ .

فولاه عثمان الديوان وبيت المال، وأما كعب بن مالك فاستعمله على صدقة مُزَيْنة وترك له ما أخذ منهم » . فلم يحاول ابن الأثير أن يتهم حسان فى امتناعه عن بيعة على ، ولم يرجعه إلا إلى أنه شاعر يفعل ما يرى ولا يبالى ، ولم يقف الأمر بينه وبين على عند هذا ، بل دخل عليه ومعه النُّعمان بن بَشير وكعب بن مالك، فقال كعب : يا أمير المؤمنين ، أخْبِرْنا عن عثمان. أقُتِلَ ظالماً فنقول بقولك . أو قتل مظلوماً فنقول بقولنا ، ونَكِلُك إلى الشبهة فيه ؟ فالعجب من تيقننا وشكك، وقد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه ، فهاته نعرفه ، ثم قال :

كَفَّ يَدَيْه ثم أَغْلَقَ بابَه وأَيْقن أَن الله ليس بغافل

وقال لمنْ فى دارِه لا تُقاتلوا عفا اللهُ عن كلِّ امرئٍ لم يُقَاتِلِ

فقال على : لكم عندى ثلاثة أشياء ، استأثر عثمان فأساء الأثَرة ، وجزعتم فأسأتم الجَزَع ، وعند الله ما تختلفون فيه إلى يوم القيامة ، فقالوا : لا ترضى بهذا العرب ولا تعذِرنا به ، فقال علىّ : أتردون علىّ بين ظهرانى المسلمين ، بلا نية صادقة ، ولا حجة واضحة ! اخرجوا عنى فلا تجاورونى فى بلد أنا فيه أبدا ، فخرجوا من يومهم فساروا حتى أتوا معاوية ، فقال : لكم الكفاية أو الولاية ، فأعطى حسان ألف دينار ، وكعباً ألفاً ، وولى النعمان بن بشير حِمْص، ثم نقله إلى الكوفة[١] . وهكذا خرج حسان إلى الشام أيام معاوية ، فقضى هنالك زمناً لا نعلم مداه ، ولا نعرف كيف قضاه ، ثم عاد إلى المدينة[٢] .

عاصر حسان الخلفاء الراشدين وأدرك حكم معاوية ، وعمر طويلا ، وكانت أسرته معمرة . ذكروا أن أباه وجده وأبا جده عاش كل منهم عشرين ومائة سنة ، فكان ابنه عبد الرحمن إذا ذكر هذا استلقى على فراشه وضحك وتمدد ، فمات وهو ابن ثمان وأربعين سنة[٣] . وقد انقرض عقبه فلم يبق منهم أحد[٤] .

---

(١) الأغانى ١٥/٢٩ .

(٢) فى دائرة المعارف لفريد وجدى « عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : قد جاء اللعين حسان من الشام . . . » المجلد الثالث ص ٤٤٠ .

(٣) تهذيب التهذيب ٢/٢٤٧ . أسد الغابة ص ٧ . وانظر شذرات الذهب ١/٦٠ .

(٤) الشعر والشعراء ص ١٠٥ تهذيب التهذيب ٢/٢٤٧ . دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٧٥ .

عمره ووفاته

والأقوال تكاد تكون متفقة على أن حسان عمر نحواً من عشرين ومائة سنة ، وأنه توفى أيام معاوية حوالى سنة ٥٤ هـ ، سنة ٦٧٤ م[١] . أما نولدكه فيرى أن حسان عاش دون المائة ، وأنه ولد حوالى سنة ٥٩٠ م وتوفى حوالى ٦٦٠ م قبيل خلافة معاوية أو بعدها ، ويستند فى ذلك إلى أن قصائده التى قالها سنة ٦٥٦ م أو سنة ٦٥٧ م فى مقتل عثمان تشتعل حماسة ، مما لا يصدر عن شيخ قد بلغ من الكبر عتيًّا[٢] .

وهذا دليل سلبى ، لم يعتمد على قول أحد من المؤرخين ، ولم يتكئ على حوادث ثابتة يمكن أن تعين تاريخ ميلاد حسان أو تاريخ وفاته ، بل إن الحوادث نفسها تأباه ، فقد ثبت أن حسان رحل إلى عمرو بن الحارث الذى حكم سنة ٥٨٧ – ٥٩٧ م ولقى عنده النابغة وعلقمة كما تقدم ، فلو سلمنا بما يقول نولدكه للزمنا أن نصدق أن حسان قد أنشد عَمْراً هذا شعره وهو لا يزال فى المهد صبيًّا .

هذا فضلا عن أنه ليس بحتم أن تطفئ السن العالية حدة الذهن ، وحرارة القلب ، وحماسة الخاطر ، فالتاريخ الحديث يعطينا على ذلك مثلا صادقة : برنارد شو الذى كان قد جاوز التسعين ، وبرتراند رسل وونستون تشرشل اللذين حوما حولها ، وظلوا مع ذلك يرسلون نقدهم شواظاً من النار ، ويفوقون فيما يكتبون حسان بن ثابت حماسة وحرارة والتماعا .

استطاع هذا العرض أن يصور حياة حسان ، ويروى سيرته ، وقد رأينا منه أن حسان كما كان يؤرخ للإسلام . فكذلك كان تاريخه هو نفسه حلقة من تاريخ الإسلام .

خَلقه وهيئته

وكم كان بودنا أن نصور شخصه ، ونتمثل خَلْقه ، ونعرف هيئته ، لكننا لم نجد فى شعره أمارة تعين على شىء من ذلك .

---

(١) شذرات الذهب ١/٦٠ خزانة الأدب ١/١٥٧ تاريخ دمشق ٤/١٢٥ الشعر والشعراء ص ١٠٤ الإصابة ٢/٨ تهذيب التهذيب ٢/٢٤٧ تجريد أسماء الصحابة ١/١٣٨ – مفتاح السعادة ١/١٩٠ الاستيعاب ١/١٣٠ – أسد الغابة ص ٧ . دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٧٥ .

(٢) أمراء غسان ص ٤٥ .

كما أن المؤرخين لم يعنوا بهذا الجانب منه ، إلا ما قالوه من أنه كانت له ناصية يسدلها بين عينيه[١] ، وكان يخضب شاربه وعَنْفَقَتَه بالحناء ولا يخضب سائر لحيته ، فقال له ابنه عبد الرحمن : يا أبت لم تفعل هذا ؟ فقال : لأكون كأنى أسد والغ فى دم[٢] . . وهذه لمحة تشير إلى أن حسان كان يحب أن يتجمل ، وظاهرة تتصل بأحواله النفسية ، وما سبق أن روى من بعده عن المعارك والقتال ، وكأنه حين أحس من نفسه عجزاً فى تلك الناحية عمد إلى التظاهر بما يجبر ذلك العجز ، وحاول أن يستر النقص الحقيقى بذلك القناع الخارجى .

أخلاقه وصفاته

فخره وتعصبه لقومه

أما خلاله وأخلاقه وأحواله النفسية ، فأحسب أنك مستطيع أن تلمسها فيما قدمنا من حياته ، وقد بدا أنه كان فخوراً بنفسه وقومه ، متعصباً لليمن والأنصار ، نزاعاً إلى السيادة ، مزهوًّا بنفسه ، يحب الفخر ، ويؤثر الأحاديث والذكر على المال ، وقد تمنى الموت حين جاءته صلة جبلة ، حتى تنحر تلك الجُزُر على قبره ، ويسرى فى الناس وميض من خبره[٣] ، كما تمنى أن يعقد له لواء الشعراء وتنتهى إليه زعامتهم ، ولو انتهت به إلى النار . قال الرسول وقد ذكروا امرأ القيس : « يجىء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار » . فقال حسان : « ليت هذه المقالة فىّ وأنا المُدَهْدَى فيها »[٤] .

عنجهيته وصلفه

وكان فيه عُنْجُهِيَّة وصَلَف جاهلى لازماه بعد إسلامه . روى ابن سعد أن عمر ابن الخطاب بلغه ارتداد جبلة ، فشق ذلك عليه ، وقال لحسان بن ثابت : أبا الوليد ،

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٠٤ — طبقات الشعراء لابن قتيبة ص ١٢٧ . الأغانى ٣/٤ تاريخ دمشق ١٤٠/٤ . خزانة الأدب ١٥٧/١ .

(٢) الأغانى ٣/٤ .

(٣) الأغانى ٧/١٤ . الشعر والشعراء ص ١٠٤ . العقد الفريد ٦٢/٢ .

(٤) العقد الفريد ٩٣/٣ .

أما علمت أن صديقك جبلة بن الأيهم ارتد نصرانياً ؟ قال : إنا لله وإنا إليه راجعون . ولمَ ؟ قال : لطمه رجل من مُزَيْنة. قال حسان: وَحقَّ له . فقام إليه عمر بالدِّرَّة فضربه بها[١].

وفاؤه

وهذا لون من الحب والوفاء مشوب بالزهو والعنجهية التى لا تتورع ولا تبالى ، وكذلك كان حسان متطرفاً مغالياً فى حبه وبغضه ورضاه وسخطه ، وقد أحب عثمان فتعصب له ، وأقام على الوفاء له بعد موته ، وامتنع عن بَيْعة علىّ ، وهو شيخ ضعيف ضرير لا حول له ولا قوة ، لم تخذله رغبة ، ولم توهنه رهبة ، بل اعتصم بخلقه وتسلح بالشجاعة الأدبية .

وهذا الوفاء وذلك الزهو وتلك العنجهية قد ساعدت بعضهم على اتهامه بأنه لم يتأثر بروح الإسلام إلا قليلا ، وأن قلبه لم يتشرب مبادئه[٢].

سلامة طويته

كان حسان مندفعاً سريع الغضب ، لكنه كان حسن النية ، سليم الطوية — ويغلب فى الناس أن يتلازم هذان الطبعان — وقد رأينا كيف استغل دعاة السوءِ فيه هذا الخلق فاجتذبوه منه إلى حديث الإفك .

تطيره

وكان من الذين يتطيرون ببعض الأشياء . زحمته فاختة مرت بينه وبين أُطُمِه فارع وعنده قوم جلوس ، فقال : أرأيتم ما مر بكم الساعة ؟ :

ستأتيكمو غَدْواً أحاديثُ جَمَّةٌ فأَصْغُوا لها آذانَكم وتَسَمَّعُوا

قالوا : فصبحهم من الغد حديث صِفّين[٣] .

---

(١) الطبقات الكبرى ٢ / ٣٠ .
(٢) أمراء غسان ص ٤٥ . الهجاء والهجاءون ص ٢٠٧ .
(٣) الأغانى ٤ / ١٠ .

وهو الذى يتشاءم بصوت الغراب يَعُدّه نذير فراق فيقول[١] :

وأَسْمَعَكَ الداعى الفصيحُ بفُرْقَةٍ وقدجَنَحَتْ شمسُ النَّهارِ لِتَغْرُبا[٢]
وبَيَّنَ فى صوتِ الغرابِ اغترابُهُمْ عَشِيَّةَ أَوْفَى غصنَ بَانٍ فَطَرَّبا[٣]
وفى الطَّيْرِ بالعَلْياءِ إِذْ عَرَضَتْ لنا وما الطَّيْرُ إلا أَنْ تَمُرَّ وتَنْعَبَا

ولم يكن تطيره هذا غريباً عما ألف العرب فى عصره ، فقد كانوا كذلك يتطيرون ، ويتيمّنون بالطير ويتشاءمون بها ،حتى دعاهم الرسول إلى طرح تلك المعتقدات من طِيَرة وغيرها .

إباؤه

وكان أبيًّا شريف النفس ، لم يعرف عنه أنه اتخذ شعره أداة لكسبه ، ولم ينتجع الملوك والأشراف مستمنحاً همَّه أن ينال عطاءهم ، لأنه كان سيداً شريفاً ، معتزًّا بالسيادة والشرف ، ولم يهج أحداً لأنه حبس عنه رفده ، وإنما كانت تأتيه الجوائز والصلات على شعره عفواً ، آية تقدير وشهادة تبريز ، فيتقبلها راضياً مزهوًّا . وقد اشترى خمر الحانوت جملة فأراقها على الأرض ، ليقيم الدليل للأعشى على أنه يُهين ماله ويكرم نفسه[٤] . وقد حال هذا الخلق بينه وبين أن يكون شاعراً مداحاً ، فلم يمدح فى جاهليته إلا أقاربه الغسانيين ، وكان مدحه لهم مع ذلك قليلا .

غزله وحبه الجمال واللذات

وفى طبعه ما يتفاخر به السادة فى جاهليتهم من الجود ، ومعاقرة اللذات والخمر ، والانطلاق فى مجالى اللهو والغزل ، وحب الجمال ، على سذاجة طبع ، وعفة لسان ، وطيبة قلب ، ولازمه ذلك حتى أدركه المشيب ؛ فتراه عندئذ يميل إلى الكشف والتصريح بالعورات حين يغضب ، ويفحش فى ذلك ، لا يبالى أن يصيب به

---

(١) الديوان رقم ٢٩ .
(٢) الداعى الفصيح . يقصد الغراب .
(٣) بين : تبين . أوفى : أتى . طربا : مد صوته ورجعه .
(٤) انظر ص ١٤٥ من هذا الكتاب .

امرأته[١] . وربما دل ذلك على علة نفسية ، وغلبة النزعة الجنسية مع عجزه عن الاستجابة لها ، فحاول أن يشبع تلك النزعة بالإفصاح عن السر ، والكشف عن المستور . وله فى الخمر فلسفة ، فهى عنده من طيبات الحياة ، وكل عيش طيب سيفنى ، والموت والحياة سيان ، فليشرب المرء ما يطيق منها ، وليهنأ بالطيبات ، ولينتهب اللذات انتهاباً[٢] .

ثقته بنفسه

كان حسان كبير الثقة بنفسه ، مستخفًّا بأعدائه ، لا يعير اغتيابهم إياه وقولهم فيه التفاتاً ، قائلا :

ما أُبالى أَنَبَّ بالحَزْنِ تَيْسٌ أَم لَحَانِى بظَهْرِ غَيْبٍ لئيمُ[٣]

شجاعة رأيه

ومن كان هذا شأنه كان شجاع الرأى ، حرًّا صريحاً ، لا يداهن ولا يملق ، يكره المنافق والنَّمَّام ، وقد رأيناه يصارح عمر بن الخطاب برأيه فى ارتداد جبلة ، ويجاهر عليًّا برأيه فى مقتل عثمان ، ويدعو الناس إلى الكشف عما فى نفوسهم من مقتله ، قائلا[٤] :

يـأَيها الناس أَبْدُوا ذاتَ أَنْفُسِكُم لا يَسْتَوِى الصدقُ عند الله والكَذِبُ

ويقول[٥] :

أَلم تَعْلَمى أَنى أَرى البخلَ سُبَّةً وأَبْغَض ذا اللونين والمُتَنَقِّـلا
إذا انصرفتْ نفسى عن الشىء مَرَّةً فلستُ إليه آخرَ الأَمر مُقْبلا

---

(١) الديوان رقم ٧٢ .
(٢) الديوان رقم ٤٣ .
(٣) الديوان رقم ٥ .
(٤) الديوان رقم ٣١ .
(٥) الديوان رقم ٨٧ .

ثم يقول[١] :

وإنى إذا ما قُلتُ قولاً فَعَلْتُهُ ... وأُغْمِضُ عما ليس قلبى بفاعل
ومَن مُكْرِهِى إن شئتُ ألاَّ أَقُولَهُ ! ... وفَجْعُ الأَمينِ شِيمَةٌ غَيْرُ طائِل

مُحسَّد

ومن كان هذا شأنه كان محسداً ، مصاباً بالفضوليين الذين يقحمون أنفسهم عليه ، متقولين جائرين :

وأَنْ ليس للأَعداءِ عندى غَمِيزَةٌ ... ولا طاف لِى منهمْ بوَحْشِىَ صائدُ[٢]
وأَنْ لم يَزلْ لى منذُ أَدْرَكْتُ كاشِحٌ ... عَدُوٌّ أُقاسِيهِ وآخرُ حَاسِدُ[٣]

هجاؤه يخافه الناس

وكذلك كان حسان — كما قدمنا — محاسناً لإخوانه ورفاقه ونداماه[٤] ، وكان صاباً على أعدائه وشانئيه ، ويبدو أن حسان بفطرته وما تهيأ له من طبيعته كان حديد اللسان ، إلا أنه لم يكن يجد فى الهجاء لذاته ضالته ولذته . ولكن أعداء قومه وحساده هم الذين ألجئوه إلى هجوهم ، لذلك كان هجاؤه قليلا فى جاهليته ، حتى إذا جاء الإسلام ، وأعداؤه لسن كثيرون ، أعمل فيهم ذلك السلاح على أوسع نطاق ، وكان لشعره أثره فى المهجوين ، وكان الناس يخافونه . قال العلاء بن جزء العنبرى : بينا حسان بن ثابت بالخَيْف[٥] وهو مكفوف البصر ، إذ زفر زفرة ثم قال :

وكأَنَّ حافِرَها بكلِّ خَمِيلةٍ ... صاعٌ ، يَكِيلُ به شَحِيحٌ مُعْدِمُ
عارى الأَشاجِعِ من ثَقِيفٍ ، أَصْلُهُ ... عَبدٌ ، ويَزْعُمُ أَنه من يَقْدُم

والمغيرة بن شعبة الثقفى جالس قريباً منه يسمع ما يقول : فبعث إليه بخمسة

---

(١) غميزة : مطعن .
(٢) كاشح : مضمر للعداوة .
(٣) الديوان رقم ٧ .
(٤) الديوان رقم ١٣٨ .
(٥) موضع قرب مكة .

آلاف درهم ، فقال : من بعث بهذا . قالوا : المغيرة بن شعبة سمع ما قلت . قال : واسوأتاه . وقبلها[١] .

وقال حسان لموهب بن رَبَاح الأشعرى حليف بنى زُهرة :

قد كنتُ أَغْضَبُ أَنْ أُسَبَّ فسَبَّنى عبدُ المَقَامَةِ مَوْهِبُ بنُ رَبَاحِ

فقال عبد الرحمن بن عوف الزُّهرى لحسان : خذ منى ثمن موهب عبد مقامة ، واكفف عنه ، فأخذ ذلك منه ، وكف عنه[٢] .

وكان النجاشى الشاعر الحِمْيَرى يهجو بنى النجار ، وكان قومه بنو الحارث ابن كعب — ومنهم بنو عبد المدان — يتباهَون بطولهم وعظم جسومهم ، فقال حسان يهجوهم :

حارِ بنَ كعبٍ أَلاَ الأَحْلامُ تَزْجُرُكُمْ عنا ، وأَنتم من الجُوفِ الجَمَاخِيرِ[٣]
لا بأْسَ بالقومِ من طُولٍ ومن عِظَمٍ جسمُ البِغَالِ وأَحْلامُ العصافيرِ

وألقى بها إلى الصبية فحفظوها ، وسارت حتى وافت بنى الحارث ، فحملوا النجاشى موثقاً إلى حسان ، وحكّموه فيه ، فعفا عنه وأعطاه ، ونهض بنو عبد المدان إلى حسان قائلين : لقد كنا نفخر بعظم جسومنا فتركتنا ونحن نستحى منها ، وتوسلوا إليه أن يغسل عنهم ذلك العار ، فقال :

وقد كُنا نقولُ إذا رأَينا لِذِى جِسْمٍ يُعَدُّ وذى بيَانِ
كأَنَّكَ أَيُّها المُعْطَى بياناً وجسماً من بنى عبدِ المَدَانِ

فجدد قوله هذا لهم فخراً ، وأحيا ذكرا[٤] .

---

(١) الأغانى ٤/١٠ . ويقدم : هو يقدم ابن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار . أى أنه عبد خميس يدعى الانتساب إلى السادة الأشراف .

(٢) تاريخ دمشق ٤/١٣٩ .

(٣) الجوف : جمع أجوف أى واسع الجوف . الجماخير : جمع جمخور وهو الجسيم القليل الفعل والقوة .

(٤) الأغانى ١٦/١٤ — الكامل للمبرد ٥/١٦٢ .

زهوه بشعره

كان حسان مزهوًّا معجباً بشعره ، كما كان مزهوًّا معجباً بنسبه وبنفسه . وقف الحطيئة على حسان وهو ينشد :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحا وأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا

فقال له حسان معجباً وهو لا يعرفه : كيف تسمع هذا الشعر يا أعرابى ؟ قال الحطيئة : لا أرى به بأسا . فغضب حسان وقال : اسمعوا إلى كلام هذا الأعرابى ! ما كُنيَتُك ؟ قال : أبو مليكة . قال : ما كنتَ قط أهون علىّ منك حين كنيت بامرأة . فما اسمك ؟ قال : الحطيئة . فأطرق حسان ، ثم قال له : امض بسلام[1] .

وقد مر بنا كيف قام ليلا فصاح بقومه ، حتى إذا اجتمعوا له فسألوه عن خطبه قال : لقد قلت شعراً فخفت أن أموت قبل أن أصبح فلا تروه عنى .

وكان حسان على حق فى زهوه ، فقد كان الشعراء يقدرونه قدره ويشهدون له بالغيب . قال الحطيئة لكعب بن زهير : قد عامتم روايتى لكم أهل الحجاز ، وانقطاعى إليكم ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ، ثم تذكرنى بعد ذلك ، فإن الناس أرْوَى لأشعاركم . . فقال كعب :

فمَنْ لِلقوافى شَانَهَا من يَحُوكُها إذا ما مضى كعبٌ وَفَوَّزَ جَرْوَلُ[2]

كَفَيْتُك لا تَلقَى من الناس واحدًا تَنَخَّل منها مثلَ ما نَتَنَخَّلُ[3]

فاعترضه مُزَرِّد بن ضِرار أخو الشَّمَّاخ ، وكان عِرِّيضاً ، فقال :

فلستَ كحسانَ الحُسَامِ بنِ ثابتٍ ولستَ كشَمَّاخٍ ولا كالمُخَبَّلِ[4]

فبؤسك أَنْ خَلَّفْتَنِى خَلْفَ شاعرٍ من الناس لم أُكْفِئْ ولم أَتَنَخَّلِ[5]

---

(١) الأغانى ٤/١٦ — الكامل للمبرد ٥/١٦٢ .

(٢) فوز : مات . جرول : لقب الحطيئة .

(٣) تنخل : تخير وصفى .

(٤) الشماخ والمخبل : شاعران . انظر الشعر والشعراء ص ١٠٨ و ١٥٩ .

(٥) الشعر والشعراء ص ٦٢ و ٦٣ . الأغانى ٢/١٦٦ طبع دار الكتب . أكفأ : وقع الإكفاء فى شعره ، والإكفاء اختلاف الروى بحروف متقاربة المخارج وهو من عيوب الشعر . تنحل الشعر : ادعاه لنفسه وهو لغيره .

ذوقه ودقة حسه

كان حسان ذا ذوق وذا حس مرهف ، وقد أفاد من رحلته إلى الملوك وإقامته فى قصورهم تأدباً بأدبهم وحسن سلوك . فكان فى عماه وشلل يده يتحرز من طعام اليدين ، تصوّناً عما لا يطيقه مثله ، وبعداً مما لا يحب أن يقع فيه . وجاءه قومه يقولون : لقد أذن الرسول فى أن ترد عنا هجاء قريش . فقال : لست فاعلا ذلك حتى أسمع من الرسول . واستدعاه النبى للرد على وفد تميم ، فلما وافاه لم يخاطب شاعر القوم ، ولكنه اتجه إلى النبى بالخطاب قائلا : مره فليسمعنى ما قال يا رسول الله .

وإنما كانت هذه الصفات تنزوى حين يغضب أو يستثار ، فقد كانت مبادرة الغضب إليه طبعاً من طبعه ، وكان جامح الغضب شديد الانفعال .

وبعد . فهذه هى سيرة حسان ، عرضناها كما كانت ، وتلك هى صورة حسان ، جلوناها كما تمثلت ، لم نألها بيانا ، ولم نحاول أن نضيف إلى ألوانها ألواناً .